

متروبول

Metropole

المؤلف: ريم أبو عيد
عدد الصفحات: ٣٠٨
القياس: ٢٠x١٤
طبعة إلكترونية
الناشر: ريم أبو عيد
الإشراف العام: ريم أبو عيد
تصميم الغلاف: مروة فتحي
مراجعة لغوية وتدقيق: صالح شرف الدين

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة
ولا يجوز طباعة أو نشر أو اقتباس أي جزء من الرواية
دون موافقة كتابية منها

رواية

متروبول

Metropole

من وحي الغرفة ٣٠٩ بفندق متروبول
الإسكندرية

ريم أبو عيد

إهداء

إلى فليمنتر الإسكندرية

إلى تلك الروح العائقة

التي تسكنها منذ قديم الأزل

أهدي روايتي..

ريم أبو عيّد

(١)

مشدوهاً يقف على أعتاب الحلم يتأمل وجهها في دھول..
تكد عيناه تنطقان بما ينوء قلبه عن حمله من حنين.. أتراها
تذكره، أم أن رياح النسيان قد هبت على أيامها كما عبثت
رياح ذكرياتها بلياليه.. ماذا لو صدته؟.. أيمنه تحمل صدمة
كتلك.. ماذا لو جحدت ساعاته الطوال التي كان يقضيها في
انتظارها على شواطئ الرحيل.. هل يستطيع أن يصمد أمام
هزيمة كبريائه.. شيءٌ ما يحثه على التمهّل وبعض من عنفوان
اللهفة يدفعه إلى المجازفة..

يحاول أن يجذب انتباهها علّها تلتفت إليه.. علّها تدرك
نداء عينيه.. ولكنّها تمضي في طريقها دون الالتفات إليه..

وكأنها لا تراه.. ولا تعباً بانتظاره.. تحاول دقائق قلبه أن تناديه قبل أن يبتعد طيفها ويتلاشى خلف ستار من الوهم.. يركض نحوها ولكنه لا يدركها.. ضبابٌ كثيفٌ يلتف حوله ليطبق عليه.. يتشله من أحلامه ويلقي به على طرق الحيرة مرةً أخرى.. يدور بعينه بحثاً عنها.. فلا يجد منها سوى بقايا أمنية معلقة على مشجب الزمن..

كعاداته يأتي فصل الشتاء دوماً محملاً بصقيع الذكريات.. وكعاداته يحاول أن يبقى على قيد دفء حكايته معها.. تلك الحكاية التي امتصت رحيق سنوات عمره.. وأرهقت ماضيه.. وأرقت حاضره الذي لا يزال يدور في أفلاكها المعتمة..

لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف صباحًا حين استيقظ من نومه، لم يكن هناك صوتٌ إلا حفيف أوراق الشجرة العتيقة، والتي تقبع مباشرة تحت نافذة حجرة نومه بمنزله الذي ورثه عن جده.. طابقان في حي المعادي القديم الهادئ.. انتقل إلى هذا المنزل منذ عدة سنوات بحثًا عن ذاته التي افتقدتها وسط زحام الروتين اليومي لحياته المليئة بالصخب والضجر معًا..

رفع - متكاسلاً - الغطاء عن جسده المنهك ويدس قدميه الباردتين سريعًا في حذائه المنزلي، قبل أن يقف منتصبًا أمام المرأة المواجهة لفراشه يحدق في ملامح وجهه.. يمرر أصابعه فوق الهالات السوداء التي خطها السهر أسفل عينيه..

منذ ذلك اليوم الذي رآها فيه وهو يمارس السهر للكتابة عنها.. خط أوراقًا كثيرة ثم ما لبث أن مزقها جميعًا.. لأول مرة تعانده الحروف ويستعصي عليه القلم.. يشعر أنها تختبئ في مكانٍ ما بداخله.. ولكنه لا يفهم كُنه ذلك الشعور.. لا يستطيع توصيفه أو الإفصاح عنه..

"مبدعٌ مجنون" .. هكذا ينعتة أصدقاؤه المقربون منه.. وربما هكذا يراه بعض من قرائه أيضًا.. لا يزعجه أن يصفه أحدهم بالجنون؛ بقدر ما يحبطه أن يطالبه البعض بالتعقل في نزواته التي لا تعد ولا تحصى.. عَرِيْدٌ هو في علاقاته النسائية.. متعبدٌ في محراب عينيها العصيتين على كل الحروف الهجائية.. ألهذا الحد تعجز مفردات اللغة عن كتابتها؟.. ويقف جنونه حائرًا أمام تعقل قلبه الشغوف بتفاصيلها المثيرة للجنون..

وكيف لطيف امرأة أن يقض مضجع اللغة ويربك بلاغتها
كما فعلت هي؟..

هي التي لا يعرف اسمها بعد.. ولا يتذكر حتى أين التقى
بها أول مرة بخلاف أحلامه التي تطرق أبوابها زائرة ولا
تلبث أن ترتحل عنها وكأنها لم تحل عليها ضيفةً قط!!.. من
تكون؟! ولم هي دون سائر نساء الأرض، التي تحتله هذا
الاحتلال المبهم؟!..

اتجه مترنحًا نحو المطبخ.. يعد لنفسه كوبًا من القهوة علّها
تساعده على الاستفاقة من بقايا نومٍ عالق بجفنيه، وبقايا حلم
يلقي به في غيابات متاهته..

ابتسم للفراغ الكائن حوله.. يحتضن كوب قهوته
الساخنة، وأبخرة دخانها المتصاعد في الهواء يجسد صورتها

أمام عينيه.. يرتشف رشقات قليلة من القهوة ثم يشعل سيجارة.. يفتح باب المطبخ المطل على حديقة منزله ليتفقد صديقه الوفي "نوار" Noir الذي ما إن يراه حتى يهرع إليه يلثمه وينبح في سعادة وهو يدور حوله ليشاركه اللعب..

اتجه نحو مقعده المفضل في الحديقة.. و"نوار" يتبعه كظله.. يحتسي قهوته على مهلٍ.. لا يزال الوقت مبكرًا على البدء في ممارسة عاداته النهارية، والتي تبدأ في التاسعة صباحًا من كل يوم.. قراءة الصحف.. مطالعة القنوات الإخبارية حتى الثانية عشرة ظهرًا.. ثم اصطحاب "نوار" في نزهته اليومية في الشوارع المحيطة بالبيت، والعودة في الواحدة لتناول غذائه الذي تعد له أسبوعيًا "مُهْرَة" أصغر بنات "أم منصور"، والتي كانت تخدم في بيت والدته منذ صغره..

كان يعلم تمامًا أن "أم منصور" ليس لديها منصور، وأنها أنجبت خمس بنات فقط.. وأنه لا يتذكر سماع أحدهم ذات يوم يناديها باسمها الحقيقي.. سأل والدته ذات يوم من يكون هذا المنصور الذي تكنى خادمته باسمه؟.. أجابته أن تقاليد الريف لا تسمح بأن يدعوا الناس المرأة باسمها المجرد.. نادى أمه ذات يوم.. "أم عمر".. غضبت وعنفته.. كاد يبكي يومها فهي المرة الأولى التي تنهره والدته هكذا.. تذكر تعليمات والده له.. "إن الرجال لا ينبغي لهم أن يبكوا.. وأن البكاء لم يصنع للرجال".. أما هو "عمر إسماعيل سراج شركس" يجب أن يكون قويًا.. صلبًا.. كأبيه وجده.. فأمسك دموعه وانسحب من أمام والدته دون أن يحاول سؤالها ما الذي أغضبها لهذه الدرجة..

لحقت به أمه بعد قليل لتحتضنه وتقبله وتعتذر له عن انفعالها وأفهمته أن لكل طبقة من طبقات المجتمع عاداتها وتقاليدها المختلفة.. أدرك - بعدها - أنه ليس كل الناس سواسية كما كان يردد جده على أسماع العامة في خطبه التي كان يلقيها عليهم قبل كل انتخابات للحزب حين كان والده يصطحبه معه ليلقنه أول دروسه في الحياة السياسية.. لم يكن فخورًا بلقب "شركس" كما كان - جده ووالده - يظنان دائمًا.. بل كان يتعمد إخفاءه عن زملائه في جميع مراحل الدراسة وكان يكتفي بكتابة "عمر إسماعيل سراج" على جميع كراسات المدرسية وذلك بعد أن سخر منه أحد أبناء الفلاحين عندما كان في زيارة لمزرعة جده.. سمعه يتلمز عليه مع أقرانه.. حاول أن يصادقهم.. ولكنهم رفضوا صداقته.. كانوا يخشون التعامل معه وكأنه كائنٌ فضائي..

حاول دومًا أن يجتر غضبه منهم حتى ذلك اليوم الذي أهده جده دراجة لتفوقه في الشهادة الابتدائية.. حاول أن يقودها فاختل توازنه وجرحت ركبته.. أثار سقوطه ضحك الصبية الذين كانوا يلعبون في الحقل وأخذوا يصيحون في فرح.. *الديك الشرکسي وقع.. الديك الشرکسي وقع..* فما كان منه إلا أن قام غير عابئ بركبته التي تنزف لينها صفعًا عليهم.. هرع الفلاحون إليه محاولين استعطافه والاعتذار له عما بدر من أولادهم.. يومها لم يفهم عن أي شيء يعتذرون وهو من قام بصفعهم!.. ولكن شعورًا ما استقر بداخله أنه يتميز عن الآخرين.. أنه خلق لكي يكون سيدًا مطاعًا..

أحس برجفة تسري في أوصاله.. فأحكم الروب دي شامبر على جسده.. ثم نهض من مقعده عائدًا للمنزل بعد أن

بدأت السماء تمطر بقوة.. سبقه "نوار" إلى الداخل.. هرع
ليستكين في مكانه المعتاد بجوار أريكة غرفة المعيشة..

جلس "عمر" يمد ساقيه على الطاولة المواجهة.. تفقد
الساعة فوجدها قاربت على الثامنة والنصف.. لا يزال
الوقت مبكرًا على الاتصال بصديقه "سليم صفوان" الذي
لا يستيقظ عادةً قبل الثانية عشرة ظهرًا وربما الواحدة في
بعض الأحيان.. وعلى الرغم من عبثية الحياة التي يعيشها
"سليم" إلا أنه أصبح الصديق المقرب له في مدة زمنية
قصيرة.. ربما وجد فيه ما لم يجده في من جمعه بهم العمل
السياسي من قبل.. ففي الحياة السياسية ليس هناك أصدقاء
وربما ليس هناك أعداء أيضًا.. فالمصالح وحدها هي التي
تضع أحدهم في خانة الصديق أو في خانة العدو.. وما من
مصالح ثابتة في عالم السياسة القاسي.. هكذا علمته السنوات

التي قضاها في العمل السياسي قبل أن يقرر اعتزاله والتفرغ لهوايته التي شغفته حبًا منذ أن كان في المرحلة الثانوية.. "الكتابة".. هذا العالم الساحر الأسر الذي يمكنه من رسم شخصياته كما يريد هو.. يهوي بأحدهم إلى قاع الجحيم ويرتفع بآخر إلى عنان السماء.. يُشقي بعضهم ويُسعد البعض الآخر.. يخلق عوالمه الخاصة.. على الورق بإمكانه تحقيق العدالة التي يعجز عن تحقيقها أعتى السياسيين على وجه الأرض..

سحب أوراقه التي كان قد شرع في كتابتها مؤخرًا.. تصفح سريعًا ما خطته يده.. ألقى بالأوراق بعيدًا.. فما يقبع بين سطورها غير ما يرغب في كتابته الآن.. ربما أراد الكتابة عن امرأة الحلم.. تلك المرأة التي لا يعرفها والتي باتت تراوده كزائرٍ ليلي حميم.. ولكن ماذا يكتب عنها وهو لا يرى منها

سوى نظرة العتاب التي تصوبها إليه كلما رآها.. علام
تعاتبه؟.. لا يدري!.. من هي؟.. لا يعلم!..

أيقظه رنين هاتفه المحمول ليسحبه بغتة من شروده في
محاولة فهم طلاس تلك الزائرة.. كانت "مادلين".. تلك
الفتاة الفرنسية التي التقاها منذ سنوات حين ذهب يتسلم
جروًا صغيرًا من نوع "الروت فايلر" من الحَجَر الصحي
بالمطار طلب من أحد أصدقائه في الولايات المتحدة أن يرسله
إليه خصيصًا من هناك.. وكانت هي تجر حقيبتها متجهة إلى
فندق المطار لتقضي ليلتها به كجميع أفراد الطاقم بسبب
عطل أصاب طائرة الخطوط الفرنسية مما استدعى تأجيل
إقلاعها حتى الصباح..

لمحته.. أعجبته وسامته الشرقية.. كان يحمل بين يديه
 ذلك الجرو الصغير ويهم بالمغادرة.. اعترضت طريقه
 بدلال..

Quel beau chien nior - ياله من كلب أسود جميل..

قالتها وهي تُرَبِّتُ على رأس الجرو وتصوب سهام عينيها
 إلى صاحبه.. قال لها مداعباً إنه لم يختَر له اسماً بعد وشكرها
 على أنها أعفته من إرهاب التفكير في اسم لصديقه الجديد..
 أسماه *Noir* منذ ذلك الحين.. رافقته إلى منزله لعدة
 ساعات.. نهل من نبع أنوثتها حتى الشمالة.. وسكرت هي
 من خمر رجولته..

لم تكن "مادلين" هي عابرة السبيل الوحيدة على ليايه
 ولكنها الوحيدة التي يذكره بها "نوار"..

رد على اتصالها الذي اعتاده ما بين حينٍ وآخر.. أخبرته أنها
ربما تأتي في زيارة سريعة لمصر بعد شهر أو شهرين.. طلب
منها أن تُخَصِّر إليه أفضل الكتب التي صدرت حديثاً في
باريس.. وطلبت منه أن يُترجم لها بعضاً من كتاباته التي
كتبها مؤخراً..

(٢)

اليوم ليس يومًا عاديًا بالنسبة لها.. فهي ذاهبة بصحبته لمشاهدة فيلم "ممنوع الحب" بطولة "محمد عبدالوهاب" و"رجاء عبده".. ودائمًا ما يكون اليوم الذي ستذهب فيه لمشاهدة أي فيلم جديد يومًا استثنائيًا.. تقضي الليلة التي تسبقه تفكر فيما سترتيديه حين تذهب لدار السينما.. تتخيل نفسها إحدى نجمات العرض.. يستقبلها الجمهور بالتصفيق والورود.. تبهر الجميع بجملها الأخاذ وقوامها المشوق وأدائها المبهر في أفلامها التي عرضت من قبل.. النجمة التي تسطع في سماء الفن والأميرة التي تترعب على عرش قلوب المعجبين.. وعلى الرغم من أنها لم تنم إلا سويقات قليلة إلا أنها استيقظت في الصباح بكامل نشاطها.. لتعد نفسها

للحدث العظيم الذي تترقبه من حين لآخر.. ستبهر كل من يراها كالعادة..

أمسكت بأجمل وأعلى فساتينها.. ذلك الفستان الذي صممه لها خصيصة مصمم الأزياء الأشهر لترتيبه في حفل كان يحضره الملك في الإسكندرية اصطحبها والدها إليه.. ابتسمت ثم نحت الفستان جانباً فلم يكن مناسباً بالطبع للارتداء في الصباح.. واختارت بدلاً منه "تاير" أزرق داكن..

حين دلفت إلى الحفل في ذلك اليوم اتجهت إليها أنظار الحاضرين.. ربما لم تكن أجمل النساء، ولكن حضورها المتميز هو ما جعل الجميع يلتفت إليها.. كانت تسير بجوار أبيها كأميرة من أميرات العصور الوسطى.. سمعت همهمات

بعض من مرت بهم يتساءلون عمن تكون تلك الأميرة التي ترافق "موسى سمعان" .. والبعض الآخر كان ينظر إليها بحيرة يشوبها شيء من الدهشة .. ولكنها لم تعر أيًا من الفريقين انتباهًا .. كان كل ما يشغل بالها أن تنال إعجاب فنان معروف وشهير علمت من والدها أنه سيكون من ضمن الحضور ..

طافت بعينها هنا وهناك حتى لمحته يقف بين مجموعة من رجال السرايا يتجاذبون أطراف الحديث بحميمية جلية .. ستطلب من أبيها أن يقدمها إليه .. وستبهره بقدرتها على تأدية دور الممثلة التي شاركته بطولة آخر أفلامه .. ربما تكون هي بطله فيلمه القادم .. كانت تسير على بساط أحلامها بخطوات لاهثة ..

قدمها أبوها لبعض أصدقائه قبل أن يخيم صمتٌ مهيبٌ على المكان بدخول الملك وسط حاشيته.. انشغل الجميع بمتابعته.. حتى أن البعض قطع حديثه مع من كان يحادثهم ليسرع بالتوجه ناحية الملك لتحيته قبل أن يتجه إلى مقصورته الملكية ليجلس بها.. بينما كان هو في انتظار مقابلة الملك ليحدثه بشأن أمورًا تتعلق ببورصة الإسكندرية والتي كان يشارك بها كغيره من رجال المال والأعمال اليهود بالمدينة.. ومنحها انشغال والدها فرصة للتسلل خفية بحثًا عن ذلك الممثل الشهير الذي حضرت الحفل خصيصًا لمقابلته.. لم تعلن له ما جال بخاطرهما حين طلبت منه أن يصطحبها، وعلى الرغم من رفضه في أول الأمر إلا أنها بكت وألحت عليه في مرافقته..

- أرغب في رؤية الملك مثل صديقاتي اللاتي قابلنه.. ألا تستحق ابنة موسى بك سمعان أن تقابله هي الأخرى.. أرجوك يا أبي.. أريد أن أذهب معك إلى الحفل.. فلتوافق من أجلي..

وأمام إلحاحها وبكائها المستمر لم يستطع "موسى سمعان" سوى الرضوخ لرغبتها.. ولكنه أملى عليها بعض الشروط التي يجب أن تلتزم بها.. أن تظل على مسافة قريبة منه طوال الحفل.. وألا تتحدث كثيرًا مع الغرباء..

كان "سمعان" شأنه شأن غيره من يهود الإسكندرية رغم اندماجهم التام في المجتمع إلا أن له الكثير من الأسرار والخبايا التي لا يجب أن يطلع عليها الآخرون.. وافقت على الفور بالالتزام بكل ما طالبها به حتى يصطحبها معه..

وكانت مكافأته لها أن ابتاع ذلك الفستان الثمين من تصميم مصمم الأزياء الشهير الذي صمم فساتين بعض أميرات القصر من قبل..

بحثت عن فنانها المفضل بين جموع الحاضرين.. حتى وجدته يراقص إحدى النساء في الساحة المخصصة للرقص.. لم تكن قد تعلمت رقصة "الفالس" بعد.. كانت من الممنوعات الكثيرة التي تعجب بها قائمة والدها الصارمة..

وما إن وصلت إلى ساحة الرقص حتى وقفت أمامه بلا حراك أو حديث.. بدت بلهاء وهي تقف وحدها وسط الجمع الراقص.. حاولت أن تبتسم له أو تقدم نفسها إليه.. ولكنها لم تقو على الحديث.. لمحتها رفيقته وهي تطيل النظر

إليه.. فهمست إليه ضاحكة وهي تصوب إليها نظرة
ساخرة.. مما زادها إحراجاً..

ركضت بخطواتٍ مرتبكة نحو الشرفة الواسعة التي
كانت تقع خلف ساحة الراقصين.. وما إن وصلت إليها
حتى انفجرت في بكاءٍ مرير.. لم تلحظ ذلك المستند على
حائط الشرفة في الجهة الأخرى بسبب عتمة المساء وغيمة
عينيه.. والذي كان يحتسي باستمتاع كأساً من البراندي
المعتق ويدخن سيجارته في تلذذ واضح.. والذي ما إن لمحها
حتى أطفأ سيجارته بإحدى المنافض النحاسية الموضوعة
على إحدى الطاولات الموجودة بالشرفة.. واتجه نحوها
بحذر من يخشى أن يفزع فريسته قبل أن يتمكن من الإيقاع
بها..

(٣)

ارتدت ملابسها وغادرت المنزل مسرعة بعد أن هاتفتها إحدى ممرضات المشفى لتخبرها بأن جدها أفاق من غيبوبته وألح في طلبه لرؤيتها.. قادت سيارتها بسرعة لم تعتدها غير عابئة بالمخالفات المرورية.. وصلت إليه تحاول أن تسابق الزمن كي يمهلها الوقت الكافي لتراه قبل أن يرحل عن هذه الحياة.. كانت تعلم أنه سيغادرها قريباً.. أخبرها حدسها الذي لطالما أنبأها من الأخبار ما كانت تخفيه الأقدار..

دلفت من باب المستشفى تهوول تجاه المصعد.. ضغطت زر الاستدعاء في توتر بالغ.. مرت الدقائق وكأنها دهر في انتظاره.. استقلته سريعاً وصعدت إلى الطابق الثالث حيث

العناية المركزة لتجد الطبيب المعالج في انتظارها ليتقدمها إلى
غرفة جدها.. أدخلها إليه وتركها معاً كما طالبه الجد بصوته
المتحرج.. شد جدها على يدها وابتهامة واهنة ترسم على
شفتيه..

- لا بد أن تواجهي الماضي يا سارة لكي تتمكني من عيش
حاضرِك في سلام نفسي.. ومن المؤكد أننا سنلتقي مجدداً
في حياة ثانية..

كانت تلك كلماته الأخيرة قبل أن تغادره روحه.. انكفأت
باكياً على صدره وهي تلمس وجهه وتغسله بدموعها.. رفعت
وجهها عالياً وكأنها تبحث عن روحه في أرجاء الغرفة..
ابتسمت بشحوب وتمتت تودعه على أملٍ بقاءٍ جديد..
ضغطت زر الاستدعاء فأسرعت إحدى ممرضات العناية

المركزة إلى الغرفة وما إن فتحت الباب حتى انفجرت "سارة" ببكاءٍ حار.. حاولت الممرضة تهدئتها وجذبتها خارج الغرفة قبل أن يدلف الطبيب إليها لكتابة تقريره الطبي من أجل استخراج شهادة الوفاة..

هاتف والدتها الذي كان قد اضطر للانتقال إلى لندن منذ عدة أشهر ليمر أعمال فرع شركته التجارية التي افتتحها مؤخرًا هناك.. ألح عليها أن ترافقه ولو لبضعة أشهر حتى تبعد قليلًا عن مثيرات ذاكرتها إلا أنها أبت السفر متعللة برعاية جدها المريض.. لم يشأ والدها أن يرغمها على السفر معه مثلما لم يكن راغبًا في مفارقتها.. أنجبها بعد خمس سنوات من زواجه وبعد أن كاد هو وزوجته يفقدان أي أمل لهما في الإنجاب.. كانت مصدرًا دائمًا لبهجتها منذ ولادتها..

حتى أتمت عامها الخامس.. لتبدأ معاناتها ويبدأ معها رحلة
البحث عن شفاء من الشقاء الذي تعانيه..

كانت ليلة عصبية عليها.. تلتها ليالٍ أخرى لم تذق فيها
للنوم طعمًا.. حاول أبوها أن يدعوها مرة أخرى للسفر إليه
خاصة وقد رحل الجد الذي كانت تتعلل برعايته.. ولكنها
أصرت على الرفض.. ستعمل على مواجهة الماضي للتخلص
منه كما نصحتها جدها قبل أن يغادر هذه الحياة..

قضت لياليها التي تلت وفاته في قراءة ذكرياتها التي
اعتادت تدوينها في تلك الكراسي الزرقاء التي أهدتها إياها
أمها في عيد ميلادها الثامن.. بعد أن نصحتها أحد المعالجين
أن تدون كل ما يتراءى لذاكرتها من ذكريات..

البحر، هذا المهيب في استكانته.. المجنون في ثورته..
والحرب، تلك الماجنة في سعيها.. المفرطة في قسوتها..
والحب، هذا السرمدي في أوهامه.. الملعون في عذابات..
مثلث برمودا الذي دأب على ابتلاعها مرارًا ولفظها على
شواطئ الحيرة والخوف والألم..

تحسست أعلى بطنها وهي تعاود قراءة صفحات دفترها
الأزرق.. تلمست مكان تلك النُدْبَة بأناملها.. ترددت
أصداء كلمات جدها بين جنبات روحها.. استعادت كل
التفاصيل الممكنة عن حكايتها معه وهي تقلب في صفحات
تلك الكراسي العتيقة شاهدة العيان الوحيدة على عشقها
وأحلامها.. وغدره وخذلانه لها..

منذ ذلك المساء الصيفي البعيد حين أطل عليها وجهه من
شاشة التليفزيون والذكريات تعاودها وتؤرقها.. لم تكن
تعلم أنها ستلتقيه مجددًا.. ما بين الحنين والخذلان تبقى معلقةً
كحبة مطر تأبى أن تغادر سحابتها لترتطم بالأرض وتفنى..
تمزقها الحيرة ما بين الصمت والمواجهة.. أتراه يصدقها إن
واجهته.. أم سينعتها بالجنون.. كانت مجنونة بعشقه.. وكان
مفرطاً في غدره.. هل يتذكرها كما ذكرياته تستوطنها.. أم أن
الحياة أنعمت عليه بنسيان رحيم..

ياالقسوة حينها إليه الذي تحمله بداخلها كجنين يعاند
الموت كما يرفض ميلاده.. وبالرحمة الغضب الذي يشعل
رغبتها في النسيان.. إنه هو.. لا يساورها شك.. ما تغير فيه
فقط هو ملابسه.. تخيلته لبرهة وهو يجلس في الاستوديو

يرتدي ملابسه السابقة.. أضحكها المشهد.. كما أبكتها
المصادفة..

كان يجلس واضعاً ساقاً على ساقٍ كعاداته.. بنفس الشموخ
الذي يصور لمن يراه أنه من طبقة النبلاء.. يصبوب نظراته
الواثقة نحو المذيعة التي بدت مشدوّهةً بوسامته وأناقته..
كجميع النساء اللاتي قابلنه..

لم يكن نبيلًا كما ظنت.. ولم يكن أنيقًا سوى في خداعها..
كانت تغار عليه من جميع الفتيات اللاتي يرتدن الحفلات التي
كان يصطحبها إليها.. كان يهمس في أذنيها وهو يراقصها بأن
عينيه خلقت فقط لكي تتعبد في محراب جماها المدهش.. بقدر
ما كان بارعًا في مغازلتها بقدر ما أحست أنها كانت ساذجة
في افتتاحها به..

كرهته بقدر ما عشقته.. لعنته بقدر ما قدسته.. وها هو
يخرج إليها من قمقم الماضي كمارد جبار ليعيد تشكيل
أوجاعها كما صاغ أحلامها من قبل..

كان يتحدث بطلاقة المعهودة عن وليدته الأولى في عالم
الأدب.. روايته التي اقتبس أحداثها من صادفوه في حقل
السياسة..

أسئلة المذيعة تبدو باهتة أمام توهج كلماته التي كان يطلقها
كرصاصات رحمة على واقع مشوه كما وصفه لها وهي تستمع
إليه باهتمام بالغ وكأنه يحدثها عن سرٍ دفين لا يعرفه أحد..
عينها تفضح شهوتها المستترة وعيناه تلمعان بزهوٍ
طاووسي..

أنهت المذيعة اللقاء وهي تبسم للمشاهدين ابتسامتها
المصطنعة.. وعيناها لا تزال معلقةً به في انبهار..

أطفأت "سارة" التلفزيون بعد انتهاء البرنامج.. أحست
برجفة تسري في جسدها.. وكأنها سقطت فجأة في هوة من
صقيع.. كل ما فيها يتجمد.. مشاعرها.. تفكيرها.. كانت
تظن أن الماضي الذي أوسدته بين دفتي كراسياتها الزرقاء قد
غفا واستكان.. وها هو يبعثُ فيها من جديد كل أشباحه
المخيفة..

هرعت إلى دفتها تسكب هذا العائد فوق أوراقه.. تذبحه
على أعتاب حروفها قرباناً للنسيان.. فتجسدت لها الذكريات
كوحش يكاد يفتك بها.. انهمرت دموعها كأمطار ليلة
شتوية.. أغرقتها في دوامات ذكرياته أكثر فأكثر..

امتد لها صوت جدها كيّد حانية تنتشلها من الغرق.. كان
يسعل وهو يناديها لتساعده في النهوض من الفراش ليتناول
دواءه.. هرعت إليه معذرةً عن غفلتها..

لمح بقايا من حبات مطر عينيها التي حاولت جاهدة أن
تخفيها عنه.. ابتسم لها ابتسامته الحانية.. ناولته دواءه..
وقبلت جبينه قبلة مستغيثة.. أجلسها بجواره وضمها إليه..
فانهالت دموعها تنهاوى على صدره..

أخبرته بعودته.. باسمه الذي نطقت به المذيعة بحروفها
المتكسرة.. حاول أن يهدىء من روعها.. اقترح عليها أن
تتصل به كي تتخلص من فائض الذكريات العالقة بحياتها..
رفضت بشدة.. لم تكن تدري أهو الكبرياء؟ أم الغضب؟ أو
يكون خشية نكرانه لها هو ما أبعداها - في تلك اللحظة - عن

فكرة مقابلته.. ألح عليها جدها كثيرًا أن يساعدها كي تلتقي به.. ولكنها كانت خائفة من لقائه.. شعورٌ ما يخبرها أنه لن يعرفها ولن يتذكرها كما تعرفه هي وتذكره.. لقد جردها من قبل، ربما لن يعترف بها الآن بعد أن ألقى بها النسيان في غياهب الذاكرة.. كلما توغلت في صفحات دفترها شعرت أن روح جدها تحوم حولها.. تؤازرها.. وتشجعها على الإقدام على هذه الخطوة التي طالما أجلتها لسبب غير معلوم لديها..

كانت الشمس قد قاربت على المغيب.. أحست بحاجة إلى مناجاة كاتم سرها منذ الأزل.. ارتدت معطفا ثقيلا وغادرت شقة جدها بشارع فؤاد بالإسكندرية واتجهت مترجلة نحو الكورنيش.. ظلت تسير بمحاذاة البحر في الاتجاه المؤدي للمنتزه حتى وصلت إلى حي الشاطبي ثم

عادت أدراجها متجهة إلى مقهاها المفضل في محطة الرمل
"ديليس".. حيث كان فيما مضى يجالسها فيه لساعات..
دلفت شاردة حتى أنها لم تنتبه لتحية جرسونات المقهى لها..

طلبت قهوتها المعتادة.. أشعلت سيجارتها الرفيعة جدًا
بتلك القداحة القديمة التي ابتاعتها من أحد متاجر
الإنتيكات.. ومع أول رشفة من فنجان قهوتها كانت قد
اتخذت قرارًا بأن تسافر في رحلة قصيرة إلى القاهرة للبحث
عنه.. ستبدأ من دار النشر التي أصدرت له آخر رواياته..
لابد أن تصل إليه.. آن الأوان لتحرر منه ومن أثقال ماضيه
التي كبلتها لسنواتٍ طوال..

(٤)

عزيزي موردخاي،

الأمر أصبح جد خطير.. علينا أن نتخذ التدابير اللازمة من أجل تأمين مصالحنا.. لا أخفي عليك لم أعد مطمئناً.. ما من شيءٍ مؤكدٍ الآن.. يجب علينا أن نتحرك سريعاً قبل فوات الأوان.

ذيل الرسالة بتوقيعه.. طواها بحرصٍ ثم وضعها في مظروفٍ مستطيل أصفر اللون..

تأكد من إغلاقه جيداً قبل أن يستدعي سكرتيه الخاص ويطلب منه أن يذهب بنفسه ليسلم المظروف إلى السيد

"ديفيد موردخاي" شخصيًا.. مشددًا عليه ألا يتسلمه
سواه..

كان اللون الأصفر هو ما اتفقا عليه فيما بينهما لتبادل تلك
الرسائل التي لم يفصحا لأحدٍ على الإطلاق عن محتواها أو
عما تشير إليه من معان.. ووحدهما يفهمان ما تعنيه تلك
الكلمات المقتضبة.. ووحدهما يدركان المصير المحتوم الذي
يمكن أن يواجهه كل منهما إن انكشف أمرهما..

جلس "موسى سمعان" متوترًا يراقب سكرتيه
"شلومو" يعبر الطريق من خلف زجاج نافذة مكتبه أعلى
محل المجوهرات الذي يمتلكه حتى توارى عن ناظريه في
أحد الممرات الضيقة بالجهة المقابلة من الشارع والذي يؤدي
إلى البنك الذي يديره "موردخاي"..

كاد الانتظار أن يفتك بسمعان كوحش نهم.. مرت نصف ساعة عليه وبضع دقائق كدهور طويلة.. حتى لمح "شلومو" عائداً من مهمته المقدسة..

- أشكرك شلومو.. يمكنك الذهاب الآن إلى مكتبك ومعاودة عملك..

غادر "شلومو" مكتب "سمعان" وحينها ألقى الأخير بنفسه على أحد المقاعد الوثيرة المواجهة للمكتب الخشبي وهو يتنهد بارتياح وقد بدأ توتره في الانحسار وكأنه نجالتوه من موتٍ محقق..

جلس يحشو التبغ في غليونه بعناية ثم يشعله ويبدأ في مراجعة بعض فواتير البيع الخاصة بالأسبوع المنصرم كدأبه كل أسبوع.. لفت انتباهه اسم "راشيل سولومون" في

إحداها.. تذكر موعد زيارته الدورية لعيادة طبيب الأسنان الشاب "جايكوب سولومون".. والذي مر عليه يومان وكان قد نسيه تمامًا بعدما تواترت الأخبار إليه باقتراب الألمان من الإسكندرية.. رفع سماعة هاتفه يتصل بالعيادة ويحدد موعدًا جديدًا للذهاب إليه.. أجابته ممرضة "جايكوب" الأرمينية "إلينا" ترحب به وتحدد له موعدًا في السابعة مساء الغد.. التمعت في ذهنه الفكرة التي حدثه عنها "موردخاي" والتي أوحى له بها بعض يهود الغرب ممن استطاعوا الفرار من هتلر وجنوده.. سيساعده "جايكوب" على تنفيذها.. فهو وإن كان حديث التخرج إلا أنه طبيب أسنان ماهر بلا شك.. يفد إليه الكثير من المرضى من جميع الجاليات التي تستوطن الإسكندرية.. حتمًا لن يخذله فهو قبل كل شيء ابن "إيزاك" صديقه القديم..

(٥)

تلمل في فراشه يحاول أن يحجب ضوء الشمس عن عينيه
الناعستين.. تتائب يطالبها بأن تعاود إغلاق ستائر النافذة
من جديد.. أدارت رأسها نحوه وهي تقف أمام المرأة تمشط
شعرها المنسدل على كتفيها كشلال من الذهب الخام..

- استيقظ يا سليم كفاك كسلًا.. أصبحت الساعة الواحدة
والنصف ظهرًا ولديك موعد مع صاحب الجاليري.. كما
أن صديقك عمر قد اتصل بك أكثر من مرة..

- اتركني أنا نصف ساعة أخرى يا دينا.. لقد سهرت
طوال الليل لكي أنتهي من اللوحة التي كنت أرسمها..

- قم يا سليم إذا لم تتمم الاتفاق مع صاحب الجاليري
سنضطر إلى تأجيل المعرض.. وشركة الدعاية والإعلان
أنهت العمل في البانرات..

قذفها بالوسادة التي تجاوره وهو يحاول النهوض من
الفراش.. وثبت نحوه وأمسكت بالوسادة بكلتا يديها تحاول
ضربه بها.. أمسكها من ذراعيها وجذبها نحوه وهي تحاول
التملص من بين يديه إلى أن استكانت بين ذراعيه وشفته
تعتصر شفتيها..

دفعته دفعًا نحو الحمام الملحق بغرفة النوم وهي تلتقط ثيابه
المبعثرة عن تلك الأريكة المواجهة للفراش وتلقيها إليه..

- ارتدِ ملابسك سريعًا.. ليس لدينا وقت.. يجب علينا
الذهاب في غضون عشرة دقائق على الأكثر..

استكملت زينتها أمام المرأة وهي تدندن بأغنية فيروز
المفضلة لديها "عندي ثقة فيك".. فيروز ذلك الصوت
الساحر الذي رافقها في رحلة عشقها وموتها وعودتها
للحياة مرة ثانية حين جمعها القدر به من جديد..

استوقفها رنين هاتفه المحمول عن الاسترسال في
الأغنية.. أضاءت شاشة الهاتف باسم "عمر سراج"..
أجابته هذه المرة معترضةً له عن المرات الكثيرة التي لم يتلق
فيها إجابة.. كان "سليم" قد فتح باب الحمام وهو يجفف
رأسه بالمنشفة.. منحته الهاتف ليحدث "عمر" الذي طلب
منه أن يمر عليه بالمنزل بعد الانتهاء من مواعده مع مدير
الجاليري لأمر مهم.. اقترح عليه "سليم" أن يلقاها في
الجاليري أو في أي مقهى بالقرب منه في الزمالك بعد ساعة..
فقد يضطر إلى قضاء بقية اليوم هناك لتحديد مكان عرض

كل لوحة.. أنهى حديثه معه في الوقت الذي كانت فيه "دينا" ترتدي فردة حذاءها الثانية معلنة بذلك استعدادها للخروج.. تناول معطفه من المشجب المجاور للمرأة ولف حول عنقه كوفية من الصوف.. تأبطت ذراعه وهما يغادران المنزل.. تشبثت به بقوة وكأنها طفلة تخشى أن تضيع من أبيها وسط الزحام..

طفلته هي التي اختُطِفَتْ منذ سنوات حتى أعادتها إليه الصدفة وحدها حين التقيا مجددًا في إحدى السهرات التي دعاها إليه أحد أصدقائه حديث الزواج آنذاك في منزله.. ذهب إلى تلك السهرة حاملاً إحدى لوحاته الزيتية هدية للعروسين.. والتي من فرط إعجاب العروس بها دعت جميع صديقاتها في غرفة المعيشة لترين إياها..

حين أطل وجه "دينا" عليه من بين الصديقات.. عاودته الذكرى التي دفنها في أعماقه منذ سنوات.. ذكرى الخيبات المتلاحقة.. وفاة أبيه المفاجيء ثم مرض أمه.. ثم الطامة الكبرى التي هوت على رأسه لتفقدته توازنه وتقضي على ما تبقى له من أحلام.. إصرار والدها على زواجها من ابن رجل الأعمال المعروف، والذي يعمل - والدها- موظفًا لديه في إحدى شركاته.. حاولت "دينا" الرفض بشتى الطرق.. امتنعت عن الطعام لأيام.. بكت كثيرًا حتى جف دمعها..

صارحت أمها بحبها لسليم الذي كان يكبرها بعامين.. أخبرها أبوها بأنه إما الزواج وإما فصله من العمل.. وبقدر قسوة اختبار الحياة لها كانت مرارة اختيار موتها.. أقدمت على الانتحار ولكن القدر أبى أن تغادر الحياة دون أن تعيش موتًا من نوع آخر مع ذلك الزوج الذي فرض عليها قسرًا..

التقت "سليم" لآخر مرة وهي شاحبة كالأموات لتخبره
بالنبا العظيم.. أن لا حيلة لها.. تجرّع مرارة فقدته لها وقسوة
عجزه عن الاحتفاظ بها..

هو نفس الوجه الملائكي الذي طالما حلق في ملكوت
عينيه.. هي من قاسمته روحه التي كان يسكبها ألواناً شتى
على لوحاته.. أفنى فيها أيامه وعذاباته بغياها.. أغمض عينيه
ثم عاود فتحهما من جديد ليتأكد أنها هي من تقف أمامه
الآن..

اقتربت منه تومىء برأسها أن نعم أنا هي.. ارتمت بين
ذراعيه لا مبالية بالجمع من حولهما.. ضمها إليه بشدة ليتأكد
أكثر من أنها حقيقة لا وهم.. انهمرت دموعها على كتفه تعلن

عودتها إلى الحياة من جديد.. لثم دموعها بشفتيه ليروي ظمأ
حياته من دونها..

استفاقا من سكرة اللقاء على همهمات المحيطين بهما.. حكيما
للموجودين عن ذلك العشق الذي ذبحته الحياة قربانا لموت
كليهما.. غادرا تلك السهرة وهي تتشبث به ليحتضن فيها
الحياة..

- ما به عمر؟

سألته وهي تبحث في إسطوانات الموسيقى الملقاة على
المقعد الخلفي للسيارة عن إسطوانة بعينها..

- لا أدري.. ولكن صوته يبدو قلقاً.. أو ربما باله منشغلاً
بأمر ما.. سأعرف عندما نقابله.. من فضلك يا حبيبتى

أشعلي لي سيجارة.. لا أتمكن من إيجاد قداحتي وأنا أقود
السيارة..

التقطت سيجارة من علبة سجائره ثم أخرجت قداحتها
من حقيبة يدها لتشعل السيجارة له وتدسها في فمه وهي
تقول له متأففة..

- لو أنك منظم بعض الشيء ستجد كل ما تبحث عنه ولكن
في ظل هذه الفوضى بالطبع لن تجد شيئاً يا حبيبي.. أنا
أيضا لا أستطيع إيجاد الاسطوانة التي أفضلها وسط كل
هذه الأشياء الملقاة على المقعد الخلفي..

وقبل أن تترسل في شكواها المعتادة من بوهيميته
وفوضويته.. أفلت يده اليمنى من على المقود يحتضن يدها
اليسرى ويرفعها إلى شفتيه ويطبّع على كفها قبلة دافئة.. ثم

أخذ يتلمس بزهو خاتم زواجهما الذي ترتديه وهو يتسم لها
ابتسامة معتذرة..

- حبيبتى.. تعرفيني جيداً منذ زمن طويل وتعلمين أن هذا
هو طبعي.. ولكنني أعدك أن أحاول تغييره من أجلك..
فقط سامحيني إذا لم أتمكن من أن أصبح الشخص الذي
ترغبين..

أسندت رأسها على كتفه وأغمضت عينيها وهي تقول له
متنهدة..

- حتى لو لم تتغير يا حبيبي فأن أحبك كما أنت وسأظل
أحبك دومًا.. يكفيني أنني أصبحت زوجتك.. وهذا كل
ما كنت أتمناه..

وقت أن التقيا من جديد في بيت صديقه حكّت له عن
زواجها التعسّس.. وحكى لها عن شقاء أيامه بعدها..

روت له مرارة مامرت به من دونه.. وروى لها عذاب
لياليه المسهدة لفراقها.. عاشت موتها مع نصف رجل أهان
أنوثتها.. وعاش مع ألوان طيفها فوق لوحاته..

- طلبت الطلاق.. لم أستطع أن أتحمّل الحياة مع أكثر من
ذلك.. فكرت في الانتحار أكثر من مرة ولكن حتى
الانتحار جئنت من الإقدام عليه مرة أخرى.. طلبت
الطلاق أكثر من مرة ولكنه كان يرفض دائماً.. إلى أن ذهبت
لزيرة أهلي ذات يوم لأن أبي كان مريضاً وكان من المقرر
أن أبيت في بيتهم.. ولكنني عدلت عن ذلك وعدت إلى
منزلي لأجد رجلاً معه في غرفة نومي وعلى سريرى في

وضع حميمي.. يومها صممت على الطلاق وهددته بأني
سأفضحه إن لم يستجب لطلبي.. وأخيرًا نلت حريتي
منه.. وعدت إلى بيت أهلي..

ضمها إليه وهو يطبع قبلة على جبينها..

- تتزوجيني يا دينا؟؟

أمطرت وجهه بقبلاتها الفرحة..

- هل ما زلت تسأل يا سليم؟ بالطبع.. لقد عشت عمري
بأكمله وأنا في انتظار هذه اللحظة..

كانت الساعة قد قاربت على الثالثة عصرًا عندما وصلا إلى
الزمالك.. دار بالسيارة عدة مرات في الشوارع الجانبية

المجاورة للجاليري علّه يجد مكانًا خاليًا لصفها وحين فشل في الأمر.. ترجل منها متجهًا نحو الجاليري للحاق بالمسؤول عن إدارته قبل أن يغادره كما أخبره في الثالثة والنصف وترك مهمة صف السيارة لرفيقته..

منذ ذلك اليوم الذي التقت فيه مجددًا وهي تكرس كل وقتها وجهدها له ولفنه، كانت مفتونة به بقدر عشقها له.. شجعتة على المشاركة في المعارض الفنية المختلفة حتى ذاع صيته كفنان تشكيلي متميز له بصمته الخاصة في عالم الألوان.. كان يستمد من زرقة عينيها لون سماء لوحته الصافية، كانت ملهمته كما كانت الداعم الحقيقي له.. وكان العازف الوحيد على أوتار قلبها..

حكى لها "عمر" ذات يوم حين قدمها إليه عن فترات
الانهار والاكئاب التي كانت تنتابه من وقتٍ لآخر حين
كان يستبد به الشوق إليها.. إلى الحد الذي كان يثير دهشته..
كيف لرجلٍ مثل "سليم" أن يظل راهبًا في محراب عشق امرأة
اقتادتها الأقدار بعيدًا عن دربه.. لمست "دينا" السماء تيهًا
يومها، كانت تنصت لما يرويه "عمر" عن معاناة "سليم"
قبل عودتها إليه وهي تعاهد نفسها على التفاني في عالمه
الخاص الذي لم يسمح لسواها بسكناه..

(٦)

منذ أن وطأ أجداده هذه الأرض لم يبرحوها.. وقعوا في
غرام المدينة الساحرة كجميع عشاقها الذين توافدوا عليها
من كافة ربوع الأرض وما إن حلوا عليها حتى هاموا في
الافتتان بها.. ثمة روح من ماضٍ عتيق تسكن هذه المدينة..
تتلبس كل من يفدون إليها فتفنيهم فيها.. ثمة سر يستوطنها
يكاد ييوح لزائريها بما تخفيه من حكايات، ثم لا يلبث أن
يعاود التراجع كماء البحر في جزره مخلفاً وراءه ذلك الأثر
المبهم في النفس.. أتى أجداده إلى الإسكندرية منذ سنواتٍ
طويلة كغيرهم من العائلات الإيطالية الكثيرة التي نزحت
إلى الإسكندرية للعمل بها منذ عصر النهضة في عهد محمد
علي باشا..

ولد هو ونشأ في حي الحضرة حيث كان أبوه "جيانو باولو" يعمل طبيباً باطنياً في المستشفى الإيطالي "بنيتو موسولينى" المقام في الحي نفسه.. أما أمه "ماريا أليساندرو" فكانت تعمل في وظيفة إدارية بالبنك الإيطالي المصري *Banco Italo-Egiziano*.. كان الابن الثالث والأخير لأسرته.. تكبره فتاتان.. إحداهما تزوجت يونانياً من الجالية اليونانية بالإسكندرية ورحل بها إلى مسقط رأسه بأثينا.. والثانية تزوجت من شاب إيطالي يعمل في إحدى الصحف التي تصدر بالإيطالية.. أما هو "أنطونيو".. الفتى الوسيم.. فاتجه للعمل في مجال السينما.. رغب في امتحان التمثيل في بداية الأمر.. وسامته كانت تؤهله لأن يكون فتى الشاشة الأول.. ولكن سرعان ما استهواه الإخراج.. فترك التمثيل واتجه إليه بحماس تام بعد أن كاد يوقع عقد أول أدواره الثانوية في أحد الأفلام..

مازحته إحدى صديقاته يومًا وهي تراقصه في إحدى
 الأمسيات التي كان يجتمع بها شباب وفتيات الجالية
 الإيطالية سائلةً إياه عما جعله يحول مساره من التمثيل إلى
 الإخراج على الرغم من أن الممثل هو الأكثر شهرةً والأكثر
 ظهورًا.. أجابها وهو يقترب بوجهه من وجهها حتى لفحتها
 أنفاسه الدافئة بأن المخرج هو الذي يحرك الممثل.. هو القائد
 الحقيقي في العمل السينمائي.. وهو خُلق لكي يقود ولا
 ينقاد..

ضحكت بدلالٍ وهي تميل عليه وتتمايل بين ذراعيه على
 أنغام الموسيقى الصاخبة.. ثم جذبته من يده وهي تقول له
 بنبرة مثيرة..

- دعني أقودك أنا الآن إلى الجنة..

ترك الحفلة في رفقتها واتجها سوياً إلى شقته التي انتقل إليها في حي الإبراهيمية منذ أن بدأ العمل في السينما.. "صوفيا" الفتاة التي استطاعت أن ترافقه لسنة كاملة دون أن يملها كغيرها من الفتيات.. حتى لاحت تلك الفتاة اليهودية في الأفق.. والتي لم تتقبل بسهولة فكرة أن تراحمها فتاة أخرى في حياته على الرغم من أنها قد زاحمت كثيرات من قبل كان يرافقهن حتى حظيت به لها وحدها طيلة عام.. ولكنها خضعت في نهاية المطاف للأمر الواقع وابتعدت عنه مرغمة حين أجبرها هو على ذلك..

(٧)

الحياة لا تدور في فلك أي من زائريها.. الكل عابر سبيل..
والكل له دور محدد على مسرحها.. ليس باستطاعته أن يغيره
ولا أن يخرج عن نصه.. ولكن عليه أن يتميز في أداء دوره أو
على أقل تقدير أن يؤديه بإتقان قدر إمكانه..

التميز هو ما تؤمن به "نانسي".. التميز في كل شيء.. في
أفكارها التي قد تبدو للبعض متحررة بعض الشيء وللبعض
الأخر خارجة عن المألوف.. في أناقتها التي تثير حسد وغيره
الكثيرات حولها.. في شخصيتها التي تهوى الغرق في أدق
تفاصيل الحياة في الوقت الذي تبقى على سطح جميع الأشياء
التي تغوص في أعماقها.. مزاجية الطباع.. هوائية العلاقة

بالأشخاص والأشياء.. هكذا تبدو في أعين من لا يعرفها
عن قرب ولكنها صديقة مخلصه حين تصادف من يستحقون
صداقتها.. وعاشقة متفردة إن هي وقعت في الحب..

كادت تنتهي من طلاء أظافر يديها باللون الأحمر القاني
الذي يتناغم مع بياض بشرتها ليمنح كفيها الرقيقتين توهجاً
كشمس النهار في صباح شتوي.. حين دقت الخادمة باب
حجرتها لتبلغها أن صديقتها "سارة" تنتظرها بغرفة
المعيشة.. طلبت "نانسي" من خادمتها أن تعد كوبين من
النسكافيه البلاك بدون سكر لها ولضيفتها حتى تنتهي من
ارتداء ملابسها..

"نانسي نصيف" ابنة الصائغ الشهير "نصيف باسيلي"
الذي يمتلك عدة محالٍ للمجوهرات بالإسكندرية يشاركه

بها أخوه "ألير" .. ويدير إحداها أخوها الوحيد "جورج" الذي يكبرها بخمسة أعوام.. في الثلاثين من عمرها.. على الرغم من أنها الابنة الأشهر لعائلة "باسيلي" إلا أنها لم تنشأ نشأة فاسدة أو مدللة.. عودها أبوها منذ صغرها أن تشاركه في العمل ووضع لمساتها الخاصة على بعض تصميماته للمشغولات الذهبية التي يعرضها في إحدى محاله والتي قد يطلبها بعض مشاهير الفن والسياسة خصيصًا.. جذبها عالم الأزياء والموضة.. فأرسلها "نصيف باسيلي" لتتعلم تصميم الأزياء في فرنسا وإيطاليا من مشاهير المصممين هناك حين انتهت من دراستها الثانوية.. لم تلتحق بالدراسة الجامعية في مصر ولكنها تميزت جدًا في مجال تصميم الأزياء الذي استهوها عن غيره من المجالات.. افتتح لها أبوها أتيليه خاص بها لتصبح واحدة من أشهر مصممات أزياء السهرة للنساء في الإسكندرية في أقل من عامين..

تعشق الموسيقى حتى الثمالة.. قد يسكرها لحن تشدو به آلة الكمان أكثر من كأس خمر معتق.. التحقت بإحدى الفصول المسائية التي تُدرس الموسيقى للهواة.. اختارت آلتها الموسيقية الأثيرة لتصعد بها درجات السلم الموسيقي بمهارة راقصة بالية تخطو في كوكبها الدّري على أطراف أصابعها.. أما فصول اليوجا فهي الأكثر حظاً بين اهتماماتها وهواياتها المتعددة والتي ما إن تبرع في إحداها حتى تنتقل إلى غيرها كفراشة شرهة تمتص رحيق كل أزهار الحياة..

التقت "سارة" لأول مرة في محل المجوهرات الذي يديره أخوها "جورج" حين أتت إليه برفقة طبيب الأسنان "يوسف سليمان" وكانت "نانسي" هناك تنتقي قرطاً من اللؤلؤ يتماشى مع أحدث فساتين السهرة التي صممها والتي قررت أن تكون هي أول من ترتديه.. لم تكن الزيارة

الأولى لسارة لهذا المحل.. سبق وأن زارته وهي صغيرة حين كانت تملكه عائلة "سليمان" فيما مضى قبل أن تبيعه لعائلة "باسيلي"..

- صباح الخير جوزيف.. كيف حالك لم نلتق من فترة طويلة.. افتقدتك حقًا..

قالتها "نانسي" وهي تصافحه وتطبع قبلاهما على خديه بعد أن دلف إلى المحل.. وما إن رآه "جورج" حتى ترك خائماً ذهبياً كان يُقيمه بعدسةٍ مكبرة ونهض من على مقعده مسرعاً يعانقه بحميمية.. قدم لهما "سارة" كصديقة قديمة جداً.. لم يفهما حينها معنى جداً تلك التي أضافها وهو يعرفها بهما.. كما تعجبا من تلك الصداقة التي يمكن أن تجمع بين أعوامه الثمانية والخمسين وبين فتاة ثلاثينية في عمر "سارة"..

ولكنهما أقبلا عليها بودٍ حقيقي.. وسرعان ما توطدت الصداقة بين الفتاتين منذ ذلك الحين.. فنانسي التي أتمت الثلاثين تصغر سارة بخمس سنواتٍ فقط.. والأخيرة لم تكن قد كونت صداقات بعد بالإسكندرية حيث كانت قد انتقلت لتوها للعيش بها بمرافقة جدها بعد سفر أبيها إلى لندن لمباشرة أعماله.. كان حينها لمدينتها القديمة يشدها طيلة الوقت الأمر الذي جعل والدها يستأجر لها ولجدها شقة في إحدى العمارات القديمة بشارع فؤاد في الإسكندرية ليقم بها حيث رغبت هي أن تعيش.. اختارتها تحديداً لطرازها المعماري الفلورنسي الذي كان دائماً يستهويها..

خرجت "نانسي" من غرفتها ترتدي سروالاً من الجينز الأزرق الغامق وكنزة صوفية حمراء بلون طلاء أظافرها.. كانت تسير حافية القدمين.. في حين كانت "سارة" تطالع

بعض مجالات الأزياء الكثيرة التي لا يخلو منها منزل
"نانسي".. في الوقت الذي قفزت فيه الأخيرة على الأريكة
بجوارها..

- ألن تكفي عن هذا العبث يا نانسي.. أفرعتني.. كما أن
الطقس بارد جدا فكيف تمشين على البلاط حافية هكذا؟

- لم أشأ أن أتركك بمفردك وقتاً أطول.. ولا أستطيع أن
أرتدي حذاء حتى يجف طلاء الأظافر الذي طليت به
أظافر قدمي..

- نانسي.. أرغب في مقابلة عمر.. أريد أن أنتهي من هذا
التيه الذي أعيش فيه.. لا أستطيع الاستمرار معلقة بين
الماضي والحاضر أكثر من ذلك.. فمذ أن رأيته مرة أخرى
وكل شيء في حياتي انقلب رأساً على عقب..

كانت "نانسي" تنصت إلى "سارة" وهي تفكر في الوسيلة التي تمكنها من مقابلته دون أن يخدش اللقاء كبرياء صديقتها أو يثير في نفس "عمر" الظنون في أمرها..

- ماذا ستقولين له حين تلتقي به؟ أتدريين أنه حتى لو استمع إليك سيظن بك الظنون وأن ما تقولينه هو هراء وجنون.. وإن أسعدك الحظ قليلا سوف يعتبر أن لك خيال خصب كخيال المؤلفين..

- ولكنني تعبئة جدًا يا نانسي.. أما هو فيعيش حياته بصورة عادية كما لو أنه لم يدمر حياتي أكثر من مرة.. أشعر أنني تائهة وأريد أن أرسو على بر حتى أتمكن من العيش كسائر الناس..

- هناك أناس الحياة والموت سواء بالنسبة لهم.. وهناك من يعيش وهو لا يعلم الهدف من حياته.. وهناك من يعرف ولكن ليس بإمكانه الوصول إلى مبتغاه..

- منذ متى أصبحت فيلسوفة هكذا يا نانسي.. أم أن هناك أمرا ما يزعجك هذه الأيام؟

- لا تهتمي لأمرى.. أنا بخير.. المهم دعينا نفكر بهدوء حتى نضمن أن مقابلتك له لن تتسبب لك في متاعب أكثر..
التقطت "نانسي" هاتفها المحمول من على الطاولة الخشبية التي تتوسط غرفة المعيشة وهاتفته "يوسف" لتحدد معه موعدًا لملاقاتهما في ذات المكان الذي اعتادوا اللقاء به في أغلب مساءاتهم..

- الساعة السابعة في ديليس.. لا تتأخر كالمعتاد..

أنهت "نانسي" مكالمتها مع "يوسف" ثم تناولت قدح
النسكافيه الخاص بها.. ليسود صمت طويل بين الفتاتين..
همت "سارة" أن تقطعه أكثر من مرة لتعلن لصديقتها عن
رغبتها في السفر للقاهرة للبحث عن "عمر".. إلا أنها
تراجعت عن الإفصاح عما يدور في رأسها حتى لا تشيها
"نانسي" عن قرارها..

(٨)

التفت العائلة حول مائدة الطعام.. تلا الأب الصلاة
 أولاً.. ردد أفراد أسرته بصوتٍ خفيضٍ بعد انتهائه من
 تلاوته في آن واحد.. آمين..

بدأت الأم في توزيع الطعام على العائلة كعادتها في حين
 كانت "كلير" تفرغ بعض المياه من الدورق الزجاجي في
 الكوب الموضوع أمامها.. شربت قدرًا من الماء قبل أن تبدأ
 في تناول لقيمات قليلة من الطعام وتكتفي بها.. وبختها الأم
 على ما تقوم به من تجويع نفسها.. ولكن تلك القبله التي
 طبعتها على خد أمها قبل أن تغادر المائدة كانت كفيلة
 بإسكاتهم مؤقتًا عن الاستمرار في التقرير لهذا اليوم..

- مسابقة التانجو لم يبق عليها سوى أسبوع واحد ولن
أتنازل عن المركز الأول هذا العام أيضًا..

قالت "كلير" بحماس وهي تتجه نحو المطبخ تحمل طبقها
الفارغ لتضعه في الحوض وتقوم بغسله..

وصل إلى سمعها صوت "دانيال" وهو يحدث والده عن
رغبته في السفر إلى بريطانيا مع بعض أصدقائه الإنجليز
المقيمين بالإسكندرية ولكن "إيزاك" قاطعه برفض تام قبل
أن يكمل حديثه..

- إن السفر في وقت الحرب مجازفة غير مأمونة العواقب
دان.. فلتتظر حتى تنتهي هذه الحرب اللعينة ولك كل ما
تشاء حينئذ.. كما أن المتجر يحتاج إلى إدارتك بعد أن تفرغ
جايكوب لعيادته..

هم "دانيال" بمعارضة والده حين دق جرس الباب.. أشار له "إيزاك" أن يذهب ليفتحه ويؤجل حديث السفر إلى ما بعد الحرب.. كان "جايكوب" الذي جاء يستشير والده في أمرٍ مهم.. أمر لم يستطع إطلاع أي شخص عليه ولا حتى "راشيل" زوجته..

جلس "جايكوب" في غرفة المعيشة في انتظار قدوم والده.. و"دانيال" يحاول أن يستميله إلى جانبه لاقناع "إيزاك" بموضوع سفره.. إلا أن "جايكوب" كان شاردًا ينوء بعبء المهمة التي أوكلها إليه السيد "سمعان" عندما زاره مؤخرًا في عيادته..

تركهما "دانيال" واتجه إلى غرفته ليستكمل ارتداء ملابسه ويذهب لمقابلة بعض أصدقائه كما أخبر والده..

طلبت منه "كلير" أن يقلها إلى منزل "موسى سمعان" لملاقة "سارة" قبل أن تذهب إلى التدريب في مدرسة التانجو التي تتدرب بها على المسابقة.. تجهم وجه "دانيال" قليلاً حين سمع اسم "سارة".. ولكنه سرعان ما حاول إخفاء ذلك عن "كلير" التي زمت شفيتها وهي ترفع كتفها لأعلى في إشارة منها على الاعتذار والحيرة في الوقت ذاته.. فهي صديقتها منذ الطفولة والتي لا ترغب في الابتعاد عنها كما أنه شقيقها الذي تحبه ولا تود إغضابه.. هز لها "دانيال" رأسه متفهماً.. وابتسم لها هازئاً بالوضع برمته..

يكبرها بعامين.. جمعتها مناسبات عائلية كثيرة منذ الطفولة.. كان يعاملها مثلما يعامل "كلير" إلى أن بلغا طور المراهقة.. بدأت مشاعره تراها بعين فتى مراهق.. يتخيلها تراقصه في الحفلات الصاخبة التي يقيمها الأصدقاء..

وترافقه في جميع نزهاته المسائية.. كانت فتاته التي يغار عليها
ويحاول حمايتها طيلة الوقت.. ربما كان وجوده معها هي
و"كلير" بصفة دائمة هو ما جعل "موسى سمعان" يطمئن
ويسمح لها أن ترتاد الحفلات مع صديقاتها بعد أن كان يخشى
اختلاطها بالكثيرين ممن يماثلونها في العمر..

تفتحت أمام عينيه كزهرة ندية.. كان هو أول من ذاق
رحيق شفيتها وهي في الثامنة عشر.. لا يزال يتذكر تلك
اللحظة على الرغم من مرور عامين عليها وعلى الرغم من
مرور شفتاه على شفاه فتيات أخريات.. صارحها بحبه..
انتشت لحديثه العذب.. شعرت يومها أنها أصبحت امرأة
ناضجة.. صارحته بحلم حياتها الذي لم تصارح به أحدًا من
قبل.. ولكنه لم يأخذه على محمل الجد.. ظن أن الأمر لا يعدو
انبهارًا بهؤلاء النجمات اللاتي تشاهدن حين كان يصطحبها

و"كلير" إلى دور السينما من حينٍ لآخر.. ولكنها كانت تتماهى في الحلم بقدر ما كان هو يتشبث بالواقع.. حتى انتزعها منه رجلٌ آخر تاركاً له بقايا حلم بحياةٍ لن تتحقق معها..

قاد "دانيال" سيارته وهو شارد الذهن.. جامد الملامح.. لم تشأ "كلير" أن تحدثه طوال الطريق.. كانت تعلم ما يعاينيه من وجع كلما نكأ اسم "سارة" جرحه.. أثرت الصمت كما أثر هو الابتعاد تماماً عن حياة تلك الفتاة التي كانت يوماً حبيبته..

داس على المكبح فجأة حين وصل إلى منزل "سارة" فأصدرت السيارة صوتاً كأنينٍ أسدٍ جريحٍ وإطاراتها تحتك بإسفلت الشارع معلنةً عن انتهاء رحلته مع ذكرياته البائسة..

طبعت "كلير" قبلةً على خده قبل أن تترجل من السيارة..
كأنها تعتذر إليه مرةً ثانية عن ذنبٍ لم تقترفه.. دَخَلَتْ من
بوابة المنزل الذي تقطن به عائلة "موسى سمعان" في حين
أطلق "دانيال" العنان لسيارته ليلحق بذلك الاجتماع المهم
الذي دعاه إليه "ديفيد موردخاي" في منزله بحي زيزينيا
والذي كانت تقطنه أيضًا عائلة فتاته التي كانت..

كان "موردخاي" قد أكد على "دانيال" أن يظل أمر هذا
الاجتماع سرًّا بينهما لا يفصح عنه لأي شخصٍ على الإطلاق
وعلى وجه الخصوص "إيزاك سولومون"..

(٩)

تلك المنافي التي لا تبرحنا.. تَنْبُتُ أشجارها من عتمة
 ماضينا.. تتكاثف حتى تصبح غاباتاً من الحنين وأشواكاً من
 الألم.. تتغلغل في أعماقنا فتغدو وطناً وملاذاً حين ترفضنا كل
 منافي الأرض.. نلفظ ما تبقى من أيامنا كرجع الصوت
 العائد من بيداء التيه..

بقي مريضان في غرفة الانتظار.. أبلغته ممرضة عيادته
 الخاصة الواقعة في حي الشاطبي في إحدى العماير القديمة
 القريبة من محطة الترام.. ارتدى نظارته الطبية ليطلع ملف
 المريض التالي.. كانت "أمنية" تلك الطفلة ذات السبعة
 أعوام التي كان يضطر أن يروي لها بعض قصص الأطفال

التي كان لا يزال يحفظها منذ طفولته حتى يُهدىء من روعها وهو يقوم بتنظيف أسنانها.. تُذَكِّرُهُ هذه الطفلة بحفيدته "هيللا" ابنة ابنه الوحيد "بنيامين" الذي صمم على الرحيل إلى المغرب بعدما أنهى دراسته الثانوية في مصر منذ عدة سنوات.. والذي طلب منه أن يصطحبه في سفره إلا أن "يوسف" تشبث بما تبقى له من حياة في الإسكندرية.. عاد "بنيامين" لزيارته مرة أو مرتين ثم انقطعت زياراته تمامًا وإن لم تنقطع اتصالاته ورسائله.. كان "يوسف" كلما اشتاق لولده امتن كثيرًا لمخترع الإنترنت الذي جعل من العالم قرية صغيرة.. حتى أنه بضغطة زر على حاسبه الآلي يمكنه أن يرى ابنه وحفيدته صوتًا وصورة وكأنهما يعيشان معه بالفعل..

مرت ساعتان وهو منهمكٌ بعمله حتى انتهى من المريض الثاني ليطلب من الممرضة أن تنصرف كونه لن يستكمل

العمل هذا المساء حتى انتهاء وقت العيادة المعتاد.. "يوسف يعقوب سليمان" أو "جوزيف جايكوب سولومون".. طبيبُ أسنانٍ بارعٌ في مهنته.. محبوبٌ في محيط عمله من مرضاه.. افتتح عيادته مباشرة بعد تخرجه من كلية طب أسنان بالإسكندرية.. رفض أبوه "جايكوب سولومون" أن يرسله للدراسة خارج مصر كما دأب الكثيرون من بني جلدته آنذاك.. خشي ألا يعود كغيره ممن غادروا.. إنه الوطن الوحيد الذي نعرفه ويعرفنا.. هكذا كان يردد عليه كل صباح ومساء.. ورث "يوسف" عيادته عن أبيه، والذي كان طبيباً مشهوراً للأسنان فيما مضى.. "جايكوب سولومون".. الذي اكتسب شهرته من تردد بعض السياسيين على عيادته وبعض أثرياء عائلات الجاليات الأجنبية التي كانت الإسكندرية تعج بهم.. وأيضا لعلاقات أبيه "سولومون" الوطيدة برجال المال والأعمال من اليهود في ذلك الوقت..

والذي كان من بينهم الصائغ الشهير "موسى سمعان" الذي كتب محل المجوهرات الذي يمتلكه بإسم "جايكوب" قبل أن يقرر الرحيل عن الإسكندرية في خريف عام ١٩٤٢..

- دعنا جميعاً نرحل من هنا يا جايكوب ألم تسمع عن أهوال المحرقة التي أقامها النازي "هتلر" لبني جلدتنا.. وها هو على أبواب الإسكندرية..

- إن بريطانيا لن تسمح لهم بذلك.. هزيمتهم تبدو حتمية يا سيد سمعان..

- ها أنت تقول تبدو.. أي أنهم قد يكسبون الحرب.. وقد نجد جنود هذا النازي أمامنا في أية لحظة.. وفي هذه الحالة سيتقمون من كل المتعاونين مع الإنجليز.. وسيبدأون بنا بالطبع..

- لن أبرح وطني يا سيد سمعان.. لا أستطيع مغادرته.. فيه
أعيش وعلى أرضه أموت..

- سأرحل في غضون أسبوع من الآن يا عزيزي جايكوب..
سأصطحب عائلتي ونرحل جميعاً.. سنلحق بعائلة
موردخاي في المغرب.. وإن كنت باقياً لا محالة سأترك لك
إدارة محل المجوهرات وسأنقل ملكيته لك صورياً حتى
تتمكن من بيعه إن طلبت منك ذلك ذات يوم.. سأمر
عليك قبل رحيلي بيومٍ على الأكثر حتى تكون انتهيت من
إعداد ما أوصيتك به..

بعدما انتقلت العيادة إلى "يوسف".. طلب منه
"جايكوب" أن يزيل اللافتة القديمة وأن يكتب اسمه على
اللافتة الجديدة د. "يوسف سليمان".. حتى لا يتعرض لتلك

المضايقات التي تعرض لها غيره من اليهود قبل رحيلهم عن الإسكندرية وعن مصر كلها..

- أنت مصري قبل أي شيء وكل شيء يا يوسف هذا هو المهم.. عش حياتك كمصري فقط.. وكن على يقين أن مصر لا تلفظ من يحبها بصدق..

مات "جايكوب" مصرياً وعاش "يوسف" مصرياً كما كان أبوه وجده.. تمنى لو بقي معه ابنه "بنيامين" كما بقي هو مع أبيه "سولومون" ولكن ابنه خذله برحيله.. ماتت زوجته بعد رحيل ابنهما بسنة واحدة.. وبقي هو وحده يتجرع الذكريات ويرافق الوحدة.. أطفالاً أنوار عيادته.. أحكم إغلاق بابها كما أحكم إغلاق معطفه.. توشح كوفيته الصوفية.. ثم ترجل في اتجاه سيارته ليلحق بموعده مع

"سارة" و"نانسي".. أدار راديو السيارة التي اندس فيها
سريعاً ليتلافى برودة الطقس لتطل عليه محطة الأغاني التي
تبث أغنيات حديثة لم ترق له يوماً.. أطفأ الراديو وأدار
مشغل الإسطوانات على أغنية لأم كلثوم.. التي شدت
بكبرياء.. "إبكي مش حسأل عليك.. إبكي مش هرهم
عينك.. ياللي مرهمتش عينيا لما كان قلبي في إيديك.. دارت
الأيام عليك.. "وشرد مع ذكرياته حين كانت حياته الأسرية
مفعمة بالحياة..

(١٠)

ارتبكت حين اقترب منها.. حاولت أن تداري دموع
عينها عنه.. بدأت ملامح وجهه تتضح لها شيئاً فشيئاً مع كل
خطوة يقتربها منها حتى أصبح أمامها مباشرة..

أبهرتها وسامته.. واخترقها عيناه العميقتان.. أطالت
التحديق في شاربته الذي يشبه شارب ممثلها المفضل "كلارك
جيبيل" .. حتى ظن أنها تنظر إلى شفثيه.. هم بأن يلبي نداء
عينها الذي يدعو له لتقبلها.. زاد في اقتراب وجهه من
وجهها ولكنها ارتبكت وأدارت رأسها عنه بخجل.. تنحج
بخيبة أمل قبل أن يمد يده مصافحاً ويقدم لها نفسه..

- أنطونيو جيانو.. مصري من أصل إيطالي أعمل في مجال
الإخراج السينمائي..

شهقت مندهشة وهي تضع يدها على فمها لتكتم صيحة
فرح كادت أن تفر هاربةً من بين شفتيها.. أيمن أن تكون
السماء قد أرسلته إليها لتطيب خاطرها به.. أيتحقق حلمها
بعد أن كاد اليأس يفتك به؟..

عقد حاجبيه وهو ينظر إليها محاولاً فك طلاسمها.. هم
أن يسألها عمن تكون هي؟.. ولماذا كانت تحرق في شفتيه؟..
وما الذي أدهشها إلى هذا الحد؟.. أسئلة كثيرة أراد أن
يطرحها عليها دفعة واحدة.. ولكن إجاباتها جاءت أسرع
من أسئلته..

- أعتذر لغرابتي.. لستُ مجنوناً بالطبع ولكنني جئت إلى هذا
الحفل لأقابل ذلك الفنان الشهير علّه يساعدني في أن أحقق
حلمي وأصبح نجمةً سينمائية معروفة.. ولكنه خذلني
بسخرية رفيقته مني.. وها هي السماء ترسلك إليّ قبل أن
يصيب خذلانه أحلامي في مقتل..

كان ينظر إليها وعلى شفثيه إبتسامة صيادٍ محترف ظفر
بفريسة جديدة تُلقِي بنفسها طواعيةً في شباكها التي أعفته
سذاجتها من عناء نصّبها..

- هذا عن دهشتك.. ماذا عن تحديقك في شفثي؟ هل
أغرّتك بتقبيلي مثلاً؟

سألها وهو يصبو نظره إلى عينيها مباشرةً بنبرة امتزج فيها
الإغواء بالرغبة..

تضرج وجهها بحمرة الخجل.. حاولت أن تداري
ارتباكها وهي تبتعد عنه بضع خطوات.. فكادت أن تتعثر..
لحق بها فهوت بين ذراعيه.. لم يدع شفثيه تضل طريقها هذه
المرة.. اعتصر شفثيها كأنه لم يُقبَل امرأة قط من قبل..
تهدجت أنفاسها.. وأغمضت عينيها ثم فتحتها سريعاً لكي
تتأكد من أن ما تعيشه حقيقة لا حلمًا من أحلامها.. أفلتها
من بين ذراعيه وظل يحرق في وجهها وابتسامةً واثقةً تزين
وجهه..

ارتسمت على شفثيها ابتسامةً رائقة.. قبل أن تنطلق في
حديثٍ طويلٍ معه عن عشقها للسينما ورغبتها في أن تخوض
غمار التمثيل حتى وإن اضطرها ذلك إلى تحدي عائلتها بل
والعالم أجمع إن تطلب الأمر..

كانت موسيقى الفالس لا تزال تصدح من داخل قاعة
الحفل.. أمسك بيدها ليلثم كفها قبل أن يطلب منها
مراقصته.. فاجأته أنها لا تحيد الرقص.. ضمها إليه بقوة وهو
يهمس في أذنيها بأن بقاءها بين ذراعيه هو ما سيضمن لها أن
تعيد كل تفاصيل الحياة ليس الرقص فحسب..

استسلمت لجموحه واستكانت بين ذراعيه مسندةً رأسها
على صدره سارحةً فيما ألقاه على مسامعها من وعودٍ بأن
يجعلها نجمةً متألأةً في سماء الفن.. صمتت الموسيقى لتعلن
عن رغبة الملك في انقضاء الحفل ورغبة جلالته في
الانصراف.. أعادها الصمت إلى أرض الواقع.. أسرع في
الإفلات من ذراعيه لتلحق بوالدها قبل أن يبدأ في البحث
عنها ويثور عليها لعدم التزامها بالبقاء بالقرب منه.. سأها
عن اسمها قبل أن تغيب عن ناظريه.. أجابته وهي تهوّل

منسحبة من الشرفة في اتجاه قاعة الحفل .. "سارة" .. سمعته
قبل أن تفر من أمامه يحدد لها موعدًا بعد الغد في الرابعة
عصرًا أمام فندق "متروبول" .. أو مأت له برأسها
بالإيجاب .. وهي لا تزال تركض مبتعدة عنه .. واندفعت
وسط الحشد لتقف في ذلك الركن القصي الذي تركها فيه
والدها قبل أن يذهب إلى مجلس الملك .. تنفست الصعداء
عندما لامست قدمها أرضه .. واتسعت ابتسامتها لتحتضن
الكون من حولها ..

(١١)

حين نسلك دروبًا خاطئة تصبح كل خطواتنا مثقلة
 بالحيرة.. تغدو كل الطرق للنجاة هلاكًا وشيكًا.. وحين
 نصل إلى حافة الهاوية نلعن تلك الأخطاء التي قادتنا إلى هذا
 المصير.. إن مأساتنا تكمن في عدم مواجهة أنفسنا بما اقترفناه
 من جحود في حق الحياة..

للم شتات نفسه المبعثرة فوق مرافئ أحلامه.. وإخفاقاته
 المحبطة وهو يلتقط مجموعة من الصور الملقاة على طاولة
 حجرة المعيشة.. راودته عن طيفها حتى في صحوه.. راود
 ذاكرته عن أي خيط يقوده إليها.. باءت ذاكرته بالفشل كما
 مُني بالخيبة.. أحضر ألبومًا لصور فوتوغرافية لا يزال يحتفظ

بها.. كثيراتُ هن النساء اللاتي مررن بأيامه.. واللاتي مر هو
على لياليهن..

صورة تجمععه بهادلين تتصدر الألبوم.. صورة أخرى مع
لوسيندا تلك الفتاة الإسبانية التي التقاها في إحدى رحلاته
لمديد.. وأخرى لفتاة تدعى سيلين التقاها في ليفربول..
وتلك لعالية في الأقصر.. وجوه كثيرة طافت بعينه.. حاول
أن يجدها بين صاحبات الصور.. ربما قابلها في إحدى
رحلاته حين كان عليه أن ينتقل من دولة لأخرى أثناء عمله
بالخارجية.. ربما راقصها ذات سهرة.. ربما عانقها ذات
نزوة.. ولكن يا أسف تخميناته.. لا يوجد لوجهها أي أثر في
أية صورة من هذي الصور..

أعاد الصور إلى سُكُنَها بين صفحات الألبوم القديم..
فتح حاسبه الآلي ليعاود البحث عنها من جديد وسط آلاف
الصور المخزنة به والخاصة بحفلات توقيع رواياته
والأمسيات الثقافية التي كان ضيفاً عليها.. طاف بوجوه
جميع النساء من يعرفهن ومن يجهلهن.. لكن وجهها أبى
أيضاً أن يطالعه من بين وجوههن..

دخل إلى حسابه على موقع التواصل الاجتماعي.. فتش
عنها في قائمة متابعيه.. لم يجد لها أثراً.. فكر في أن يستكمل
البحث في الموقع بأكمله ولكنه اكتشف سذاجته.. فهو لا
يعرف عنها أي شيء سوى تلك الملامح التي تزور أحلامه
من حينٍ لآخر..

أي لعبة هذي التي يمارسها هذا الطيف العابر معه.. سخر من نفسه.. إنها مجرد أضغاث أحلام.. فليكن هذا هو الأمر إذن.. ولكنها ليست عابرة حلم كما ظن حين زاره طيفها في أول ليلة.. بل هي تستوطن نومه كاحتلال لا يجدي معه مقاومة.. هي من تقرر متى تأتي.. ومتى تتلاشى كسحابة من الدخان.. هي من تمنحه ابتسامتها الغامضة وهي من تصوب عتاب عينيها سهامًا تخرق يقظته قبل أن تشعل نار الحيرة في غفوته..

كل ما يتذكره عنها ومنها.. هو تلك الليلة التي زارته فيها لأول مرة حين سافر للإسكندرية في ذلك الصيف لحضور إحدى حفلات توقيع رواية من رواياته والتي أقامتها له دار النشر هناك.. كان "سليم" لا يزال وحيداً فلم يكن قد وجد "دينا" بعد.. فسافر مع "عمر" بعد إلحاح من الأخير..

- لا أرغب في السفر بمفردي يا سليم.. وأنا مضطر للمبيت هناك لحضور ندوة عن رواياتي في اليوم التالي.. تعالى معي.. أنت أيضاً بمفردك فلتصحبني إذن بدلاً من المكوث وحدك في القاهرة..

وافق "سليم" على مضض فلم يكن في حالة نفسية تؤهله للسفر بعد أن تعرض لوشاية حقيرة من أحد زملائه في قطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة اضطر بعدها إلى أن يقدم لإجازة بدون مرتب حتى يستعيد نفسه من جديد ويعيد ترتيب أوراقه..

لم يكن "عمر" قد قرر بعد أين سيقوم في الإسكندرية فترك الاختيار لرفيقه.. اتجه "عمر" فور وصوله مباشرة إلى "كافيه

لاتينو" الواقع على البحر ليلتقي الناشر الذي حدد له موعداً هناك ليصطحبه بعد ذلك لمكان الحفل..

أما "سليم" فبعد أن أوصل "عمر" إلى الكافيه قاد السيارة في اتجاه محطة الرمل بحثاً عن فندقٍ مناسب يقضيا فيه ليلتهما.. اتجه أولاً نحو فندق "سيسيل" ولكنه لم يجد به أي غرفة خالية في ذلك الوقت.. عبر الشارع المقابل للفندق في اتجاه شارع سعد زغلول ثم اتجه يميناً حتى وصل إلى بوابة فندق "متروبول".. ومن حسن حظه أنه وجد غرفة مزدوجة خالية مطلة على البحر أيضاً كان ساكنها يغادر الفندق في الوقت الذي وصل فيه هو إليه.. كانت الغرفة ٣٠٩ في الطابق الثالث فكان عليه أن ينتظر في بهو الفندق لمدة نصف ساعة حتى يتسنى لعامل النظافة أن يعيد ترتيب الغرفة وينظفها قبل أن يتسلمها..

جلس على الأريكة الجلدية الصغيرة ذات اللون النيتي بجوار البار الذي لم يعد مستخدماً كما كان في الماضي.. قدم له أحد موظفي الاستقبال القهوة ترحيباً به.. جلس يحتسيها ويطالع كل شيء حوله بنهم فنان عاشق للجمال.. كان الشاعر "قسطنطين كفافيس" محقاً حين كان يأتي إليه ليكتب أشعاره في معشوقته الإسكندرية.. توجه بعينه ناحية البار الصغير الذي يقع في أحد أركان بهو الاستقبال.. وهنا تم تصوير مشهد من الفيلم البريطاني الشهير *Ice cold in Alex* عام ١٩٥٨ والذي تدور أحداثه عن الحرب العالمية الثانية.. حديث دار في نفس "سليم" وهو يطوف بعينه في أرجاء المكان..

تلك كانت الليلة التي قلبت حياة "عمر" رأساً على عقب.. لم يستطع نسيان تاريخها بعد ذلك أبداً.. ذلك التاريخ

الذي جعله يقف منهكًا وحائرًا على أعتاب الحد الفاصل بين العقل والجنون..

كان "سليم" نائمًا حين دخل "عمر" الغرفة التي ما إن خطا أولى خطواته بها حتى تسارعت دقات قلبه وكأن شبحًا ما يطارده.. أحس بألمٍ وحشيٍّ يضرب رأسه بلا رحمة..

اتجه ناحية الحمام الملحق بالغرفة كي يغسل وجهه علّه يزيل إرهاب يومه.. ولكنه ما إن رفع وجهه عن حوض الحمام ناظرًا في المرآة الموضوعة أعلاه حتى أطلق صرخة خافتة أيقظت "سليم" على الفور الذي هب من نومه فرعًا ليجد "عمر" لا يزال يقف في الحمام في حالة من الوجود التام..

- ماذا بك يا عمر.. أفزعني.. ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

استند عليه "عمر" محاولاً أن يستوعب ما رآه لتوه في المرأة.. حاول أن يعلل الأمر لنفسه بأنه إجهاد ألم به بعد يومٍ شاقٍ في السفر والعمل.. ولكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بهذا التعليل الساذج..

- رأيتني وكأنني شخص آخر يا سليم.. لا ليس آخر ولكن بملابس مختلفة تبدو لعصر سابق.. لا أعلم.. الأمر غريب ومخيف

نظر له "سليم" بارتياح وهو يفرك عينيه ويزفر غيظاً..
- نم يا عمر وخذ قسطاً من الراحة وستصبح على ما يرام في الصباح.. يبدو أنك متعب من السفر والعمل..

عاد "عمر" من رحلة ذكرياته وأغلق حاسبه الآلي ليرتدي ملابسه وهو لا يزال يقدح زناد عقله يحاول الوصول إلى من

هي تلك المرأة الغامضة التي زارته لأول مرة في أحلامه بعد تلك الليلة العصبية التي قضاها في الغرفة ٣٠٩ بفندق "متروبول" .. قفزت إلى رأسه فكرة قد تساعد في الخروج من هذه المتاهة التي تبتلعه .. سيطلب من "سليم" أن يرسمها له .. سيملي عليه أوصافها كما يشاهدها في أحلامه .. حتى يمتلك صورة واضحة لها علّها تهديه أية الدروب يسلك في طريقه للبحث عنها؟ ..

(١٢)

كانت الأنباء تتواتر عن تقدم جيوش المحور وانتصارات "هتلر" الساحقة على الحلفاء.. الأمر الذي أقصّ مضجع يهود العالم أجمع وخصوصًا بعد تلك الأخبار التي تناقلوها عن المحارق الجماعية التي أمر "هتلر" قيادات جيشه النازي بإقامتها لإبادة جميع اليهود في أي بلد تحتله ألمانيا.. كانوا على يقين من أن "أدولف هتلر" لن ينسى ثأر بلاده ممن تآمروا عليها وساهموا في استيلاء بولندا على جزء من أرضها.. بني جلدتهم الذين كبلوا ألمانيا بقيود التعويضات المالية عن تلك الخسائر التي تسببت بها لغيرها من الدول في الحرب العالمية الأولى.. فهو لم يشعل العالم حربًا ثانية إلا لينتقم منهم في كل

مكان على الأرض ويستعيد حق بلاده الذين شاركوا هم في سلبه..

على مقعدٍ وثيرٍ من الجلد الأسود بغرفة مكتبه الأنيقة التي تحتل الجانب الشرقي من منزله جلس "ديفيد موردخاي" ينتظر قدوم من دعاهم لهذا الاجتماع المهم.. لم يكن "دانيال سولومون" هو المدعو الوحيد كما كان يظن.. كان "موسى سمعان" أيضًا وبعض اليهود الآخرين مدعويين إليه لمقابلة شخص على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية لم يفصح لهم "موردخاي" عن هويته..

كان "موردخاي" قد صرف جميع الخدم من منزله في ذلك اليوم وأبقى فقط على خادمه وكاتم أسرارته "إيلي شمعون"..

سمع "موردخاي" صوت خطوات منتظمة تقترب من غرفة مكتبه.. تبعها دقائق خفيضة لإيلي على الباب قبل أن يفتحه متقدماً الضيف المرتقب الذي طلب من "موردخاي" الاجتماع بهؤلاء اليهود.. كان الجنرال "جيمس رايت" أحد جنرالات القوات البريطانية الذي وكلت إليه مهمة الاتصال بمجموعتهم السرية التي تولى "موردخاي" اختيار أفرادها بعناية بعدما وردت قوات الحلفاء الأنباء عن استعدادات قوات "هتلر" للتوجه إلى العلمين.. أدخل "إيلي" الجنرال "رايت" إلى غرفة المكتب ثم غادرها وأعاد غلق باب الغرفة ثانية.. كان يعرف جيداً ما الذي يجب عليه فعله في مثل تلك الحالات دون حاجة "موردخاي" لتوجيهه.. نهض "موردخاي" من مقعده وصافح ضيفه بحميمية بالغة تشي بعلاقة وطيدة بينهما.. قدم له بعدها كأساً من النبيذ الأحمر

المعتق.. قبل أن ينخرطاً في حديثٍ طويل حول مهمة كل فرد من أفراد المجموعة في الأيام المقبلة..

وصل "دانيال" إلى منزل "ديفيد موردخاي" قبل الموعد المتفق عليه بعشر دقائق.. أجلسه الخادم "إيلي شمعون" في بهو المنزل وقدم له فنجاناً من القهوة الساخنة حتى يحين موعد الاجتماع بسيد.. كانت المرة الأولى لدانيال التي يزور فيها السيد "موردخاي" في منزله.. أخذ يطوف بعينه في أرجاء المنزل وهو يحتمي قهوته.. كل شيء حوله يشي ببراء فاحش.. تنهد وهو يقارن بين ما تشاهده عيناه من حوله وبين منزل أسرته المتواضع الذي كان يظنه فارها مقارنةً ببيوت أصدقائه في حارة اليهود.. كان منبهراً إلى الحد الذي جعله لم يلحظ وصول "موسى سمعان" والذي كان يظن كلما ذهب إلى منزله بصحبة أخته "كلير" أنه ذاهب إلى اللجنة

ذاتها.. ابتسم ابتسامةً ساخرة وهو يحك رأسه بيديه وتمتم
هامساً..

- كم أنت فقيرٌ يا سيد سمعان مقارنةً بالسيد موردخاي..

حاول "موسى سمعان" أن يتبين ما قاله "دانيال" لتوه
ولكن لم يصل إلى مسامعه سوى اسمه.. الأمر الذي جعله
يظن أن "دانيال" يرحب به.. فبادره هو بالتحية..

- كيف حالك عزيزي دانيال.. كم هو جميلٌ أن أراك هنا..

كاد "دانيال" يسكب فنجان القهوة على سرواله من
المفاجأة غير المتوقعة.. دعا الله ألا يكون "موسى سمعان"
قد سمع ما كان يتمم به للتو.. كان مرتبكاً إلى الحد الذي
أثار تعجب "سمعان" ولكنه علل الأمر إلى عدم اطلاعه على

مشاركته في الاجتماع.. كان "إيلي" لا يزال يقف خلف
"موسى سمعان" حين أشارت الساعة إلى السابعة مساءً..
فطالبتها بالتوجه إلى غرفة مكتب السيد "موردخاي" ..

- تفضلاً لمقابلة السيد موردخاي..

تقدمها إلى غرفة المكتب.. دق دقات منتظمة على بابها
المغلق ثم فتحه ليدخلها.. وقبل أن يغادر وجه الحديث إلى
"موسى سمعان" بأدبٍ جم..

- ستكون قهوتك معدة حالاً سيد سمعان..

انحنى انحناء خفيفة قبل أن يخرج من غرفة المكتب
ويغلق بابها مرةً ثانية.. ليبدأ الاجتماع..

(١٣)

عادت إلى بيتها لا يشغل بالها سوى الموعد المرتقب.. لم
تُطلع أحدًا على ما يدور برأسها من أفكار.. وبما اتخذته من
قرار.. كانت تعلم أن الجميع سيحاول أن يشيها عما تود أن
تفعله.. لم تكن ستقنع بأي من النصائح التي سيسدونها
إليها.. ولم تكن لتعدل عما انتوت على تحقيقه..

ألقت بجسدها المنهك على أريكة غرفة المعيشة وأملت
رأسها إلى الوراء.. ظلت تحرق في سقف الغرفة.. تجسدت
لها ذكرياتها على بياض صفحتها أشباحا تتراقص..

أغمضت عينيها.. انسابت دمعة ساخنة على خدها..
الوحدة هي ما تتقاسمه الآن مع دموع عينيها.. تحسست
الأريكة بيدها.. هنا كان يجلس في أمسيات الصيف يتابع
الأفلام القديمة.. وهناك على طاولة الطعام كان يحكي لها
عن طفولتها وكانت تعيد عليه ذكرياتها عن ذلك الماضي
العتيق..

تفتقد وجوده كما تفتقد وجودها في هذه الحياة.. معلقة هي
بين حياتين.. مقسومةً إلى نصفين.. كحبة مطر سقطت من
السماء ولن تصل الأرض أبداً..

صرخة خائفة أرقّت سكون الليل.. جعلت الأم تستيقظ
من فورها وتهرول مسرعةً إلى غرفة طفلتها الصغيرة ذات
الخمسة أعوام..

كانت الطفلة تجلس في فراشها تبكي بكاءً مريراً أفرع الأم
التي هرعت نحوها تضمها وتهديء من روعها..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. ما بك يا حبيبتى؟..

- لا تدعهم يقتلونى يا أنطونيو.. أنا.. أنا....

- أنطونيو.. من يكون يا سارة.. ولماذا تتحدثين هكذا؟ ما
بك يا ابنتى..

حملتها الأم بين يديها إلى غرفتها.. كانت لا تزال تبكي..
أضاءت مصباح الغرفة.. بدأ الأب يفتح عينيه بانزعاج وقبل
أن ييبدأ في لوم زوجته.. اتجهت إلى الفراش وهي تحتضن
طفلتها التي كانت لا تزال ترتجف من الخوف..

- أغثني يا رياض.. سارة استيقظت من نومها وهي تصرخ
وتبكي وتتحدث بكلام غير مفهوم..

- كيف؟ لا أفهم.. ماذا قالت؟..

أخبرته "هدى" بكل ما جرى لابتتها منذ اللحظة التي
استيقظت على صوت صراخها.. كان يستمع إليها وهو في
حالة من الوجوم التام التي ألجمت عقله عن أي تفكير
منطقي.. كانت الطفلة قد بدأت تعود إلى عالم النوم مرة ثانية
وهي لا تزال بين ذراعي أمها..

أعادها صوت رنين هاتفها المحمول من الماضي إلى حاضر
وحدثها في هذا المنزل بعد رحيل جدها.. كانت "نانسي" هي
المتصلة.. أجابتها بصوت منهك وكأنها عائدة من سفرٍ طويل
بلا زاد سوى الألم والوحشة..

- سوف أمر عليك في تمام الساعة السادسة والنصف تماما..
وسأصل بك حين أصل لتنزلين.. لن أصدق أنا حتى لا
نتأخر..

- سوف أكون جاهزة في الموعد..

كانت الساعة لا تزال الرابعة والنصف.. ضبطت الهاتف
على وضع الصامت ثم عادت بالزمن مرة أخرى إلى ذلك
الوقت البعيد..

بخور.. آيات قرآنية تتلى عليها.. أطباء متخصصون في
أمراض المخ والأعصاب تُعرض عليهم.. وحالتها تزداد
سوءاً.. ومعاناتها تنمو بداخلها كغاباتٍ استوائية..

كانت تبدو طبيعيةً لأيامٍ ثم لا تلبث أن تعود للحديث عن ذلك المنزل الكبير في الإسكندرية.. هذه المدينة التي لم يصطحبها والداها إليها قط منذ ولادتها.. أصبحت تردد أسماء غريبة على مسامعها.. لم يكن اسم "أنطونيو" وحده هو ما تذكره.. "دانيال".."كلير".."شلومو".."جايكوب".."الأمر الذي كاد يصيب أمها بالانهيار التام..

حتى ذلك الصباح الذي كانت تجلس فيه معها في شرفة المنزل تمسك بيدها الصغيرة وتحاول أن تعلمها كتابة اسمها كما كانت تعلمها كتابة بعض الكلمات والحروف.."سارة رياض".."توقفت "سارة" عن الكتابة ورفعت وجهها إلى أمها وهي تقول بصوت لا تشوبه ريبة أو تردد..

- اسمي سارة موسى سمعان..

(١٤)

كان صباحًا عاديًا كسائر صباحات عائلة "موسى سمعان".. لم يتغير فيه شيءٌ من الروتين اليومي لأفراد العائلة.. "ليليان نصير" زوجته تقف أمام المرأة تهتم كعادتها بهندامها وأناقعتها قبل أن تجلس على مائدة طعام الإفطار.. وهو يتصفح الجرائد اليومية.. ما يصدر منها بالعربية والفرنسية والإنجليزية كذلك.. يتابع أخبار الحرب بينهم شديد وكأنه يبحث بين السطور عما قد تحبئه لهم الأيام القادمة وما قد تؤدي إليه من نتائج.. بدا الأمر له كمتاهة مجهل أي الاتجاهات فيها يؤدي إلى النجاة من الضياع بين دروبها.. جاهد حتى لا يظهر عليه القلق المشتعل في صدره.. وكي لا يثير رية "ليليان"..

لم تبرح "سارة" غرفتها ذلك الصباح على الرغم من عدم نومها طيلة الليل.. كانت آثار السهر واضحة تحت عينيها المنهكتين.. منذ أن علمت ليلة أمس بالمصيبة التي حلت بها والخوف يسيطر عليها إلى الحد الذي شل قدرتها على التفكير..

كيف ستواجه "أنطونيو" بالأمر والأهم كيف ستواجه عائلتها.. وماذا سيكون رد فعله هو حين يعلم أنها أخفت عنه هويتها الحقيقية.. أسئلة كثيرة لا تنتهي كانت تعصف بها وهو اجس لا نهائية تنهش قلبها كوحشٍ ضارٍ لا يرحم..

إنه يحبها هكذا قال لها.. وهي بلا شك تعشقه.. وإلا ما كانت ألقت بنفسها في آتون هذا المجهول.. هل سيشفع لها

الحب عنده ويجعله يسامحها على كذبتها الوحيدة التي
اضطرت إليها ذات يوم..

سمعت صوت أمها تسأل الخادمة عنها.. تحاملت على
نفسها لتنهض من الفراش قبل أن تطرق "ليليان" باب
غرفتها طرقات خفيفة..

- سارة.. عزيزتي أما زلتِ نائمة؟!

- بل استيقظتُ ماما.. دقائق قليلة وألحق بكما على مائدة
الطعام..

جاهدت لتبدو بحالة طبيعية حتى لا تثير تساؤلات أي من
أبويها.. تساؤلات لن تستطيع الإجابة عنها مهما حاولت..

أَلَقْتُ نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى الْجِدَارِ خَلْفَ فَرَاشِهَا.. أَحَسْتُ بَرَغْبَةً
عَارِمَةً فِي تَمْزِيقِ كُلِّ الصُّوَرِ الَّتِي أَصْبَقْتُهَا عَلَيْهِ..

لَمْ تَصْبَحْ نَجْمَةً لَامِعَةً كِرَاشِيلَ إِبْرَاهَامَ لَيْفِي "رَاقِيَةٌ
إِبْرَاهِيمَ".. أَوْ لَيْلِيَانِ فَيَكْتُورَ كُوهَيْنَ "كَامِيلِيَا".. وَلَا حَتَّى
اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَكُونَ كُومَبَارِسًا مِثْلَ "فَيَكْتُورِيَا كُوهَيْنَ".. لَمْ
تَحَقُقْ سِوَى تِلْكَ الْخَبِيَةِ الَّتِي مُنِيَتْ بِهَا أَحْلَامُهَا وَلَمْ تَجْنِ سِوَى
الْخَوْفِ مِنْ مَصِيرٍ مَجْهُولٍ يَطَارِدُ وَاقِعَهَا.. مِنْذُ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ
كَانَتْ لَا تَزَالُ تَسِيرُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهَا عَلَى سَحَبِ أَحْلَامِهَا..
لَمْ تَكُنْ تَدْرِي أَنَّهَا سَتَسْقُطُ سَرِيعًا هَكَذَا وَتَرْتَطِمُ بِقَاعِ الْبَحْرِ
دُونَ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهَا يَدٌ لَانْتِشَالِهَا مِنَ الْغَرَقِ.. رُبَّمَا لَمْ تَحْظَ بِتِلْكَ
الْفُرْصَةِ الَّتِي طَالَمَا انْتَظَرْتَهَا لَتَمَثِّلَ أَمَامَ الْكَامِيرَا وَلَكِنَّهَا حَتْمًا
تَجِيدُ التَّمَثِيلَ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ.. فَتِلْكَ الشُّهُورُ الْمَاضِيَةُ الَّتِي
عَرَفْتَهُ فِيهَا أَثْبَتَتْ لَهَا بَرَاعَتَهَا فِي التَّمَثِيلِ وَقَدَرْتَهَا عَلَى إِنْتِقَانِ

الدور الذي تؤديه وهي معه.. والآخر الذي تؤديه حين تعود لبيتها.. بيت عائلة "موسى سمعان".. عليها أن تتقن الأداء أيضًا هذا الصباح.. عليها أن تبدو أمام أبويها وكأنها لا تنوء بحمل مجهولٍ خيف..

جلس ثلاثتهم على مائدة الطعام.. "موسى سمعان" يثرثر بأحاديثه المكررة عن الحرب الدائرة في العلمين.. مشيدًا بتفوق القوات البريطانية على القوات النازية.. وكأنه يطمئن نفسه بأن كل شيء سيصبح على مايرام.. و"ليليان" تشاركه حماسه في الحديث عن الإنجليز وفي كراهيته للألمان.. أما "سارة" فكانت تبتلع الطعام وهي واجهة تفكر في المصير الذي بات عليها أن تواجهه بمفردها.. فلم تكن لتجروء على الاعتراف لعائلتها بكل ما كانت تخفيه طيلة الأشهر الفائتة..

(١٥)

وقف "عمر" تحت ماء الدش الساخن يستعيد بعضًا من طاقته التي استنزفها بحثه عنها من تكون؟ .. ملم شتات نفسه وهو يلف جسده بالمنشفة قبل أن يخرج من الحمام لارتداء ملابسه والذهاب لمقابلة "سليم" و"دينا" .. كان صديقه الوفي "نوار" يراقبه في صمت وهو يجلس أمام باب غرفة النوم كأنه يواسيه في محنته .. انتهى "عمر" من ارتداء ملابسه .. ربت على رأس "نوار" وهو يداعبه بطريقته المحبة له قبل أن يغادر المنزل متجهًا بسيارته إلى محطة مترو ثكنات المعادي ..

لم يكن من عادته استخدام مترو الأنفاق في تنقلاته.. يكره الزحام بشدة.. إلا أنه قرر أن يخوض تجربة الاحتمالات حتى وإن كانت ضئيلة للغاية أو منعدمة.. ربما قادته الصدفة إليها وسط طوفان البشر الهادر في محطات المترو..

لم تكن الحملة في وجوه المارة من عاداته السيئة الكثيرة التي يعترف لنفسه بها.. إلا أنه قرر أن يمارسها هذا اليوم ولأول مرة في حياته فأخذ يتابع كل الوجوه العابرة بحرص بالغ.. ربما لمح بينهم وجهها المؤلف بأحلامه..

أهو الجنون يزحف على عقله.. أسببت له الحياة بمفرده هذا الخلل النفسي.. لم يعد بإمكانه الاحتماء بمنطقيته المعهودة من عاصفة هواجسه المفرعة.. لم يعد أي شيء مما يمر به منطقيًا على الإطلاق..

وصل متأخرًا نصف ساعة عن مواعده.. نقد سائق سيارة الأجرة حسابه.. ترجل من السيارة ليحيي "سليم" الواقف أمام باب الجاليري يدخن سيجارة.. بينما كانت "دينا" لا تزال بالداخل تشرف على بعض الأمور المتعلقة بتجهيز المعرض..

عقد "سليم" حاجبيه عندما رأى "عمر" قادمًا في سيارة أجرة، الأمر الذي لم يكن معتادًا بالنسبة له..

- هل سيارتك معطلة؟ ليتك أبلغتني كنا أجلنا لموعدنا ليوم آخر.. أو مررت عليك بنفسى بعدما أنهيت عملي هنا..
- السيارة سليمة.. ولكنى لم أكن فى حالة مزاجية للقيادة اليوم فقررت أن أستقل مترو الأنفاق..

- مترو الأنفاق؟؟ لماذا؟؟

- سأحكي لك لاحقاً.. هيا نمشي من هنا الآن..

لم يكد "سليم" يسترسل في أسئلة كثيرة ألحت عليه من غرابة الموقف حتى خرجت "دينا" من الجاليري وابتسامة سعادة وارتياح ترسم على وجهها.. سلمت على "عمر" بود ثم طبعت قبلة دافئة على خد "سليم" قبل أن تطمئننه بأن كل شيء تم ترتيبه بأفضل ما يكون..

سار ثلاثتهم إلى المكان الذي صفت "دينا" السيارة به.. تقدمهم "عمر" ببضع خطوات شارد الذهن.. أما "سليم" فلف ذراعه حول خصرها وهما يسيران خلفه..

- تولِ إنتِ قيادة السيارة يا دينا حتى أتمكن من التركيز في الحديث مع عمر.. يبدو أن الموضوع مهم بالفعل..

جلست "دينا" خلف المقود بعد أن أزاحت بعض الأوراق
واسطوانات الموسيقى لتفسح مكاناً لعمر على المقعد الخلفي
من السيارة..

- أين تحب أن نذهب يا عمر؟

سأله "سليم" حتى تتمكن "دينا" من تحديد اتجاه
سيرهم..

- أي مكان هادئ نستطيع أن نتحدث فيه دون إزعاج..

- إذن فلنذهب إلى منزلنا.. تعد لنا دينا القهوة ونتحدث..

استغرقت المسافة حوالي ربع الساعة حتى وصلوا إلى
المهندسين حيث يقع بيتهم.. خيم الصمت المطبق عليهم

طوال الطريق لم يتخلله سوى أنفاس "عمر" المتهدجة وما
ينفثه "سليم" من دخان سجائره..

لم يتغير شيء في البيت سوى بعض اللمسات الأنثوية
أضفتها "دينا" على المكان.. على الرغم من أنها أبقت على
الأثاث الموجود به قبل زواجهما.. كأنها أرادت أن تشارك
حبيبها كل سنين عمره التي عاشتها بعيداً عنه كما عاشها
هو..

توجه "سليم" لتغيير ملابسه بينما اتجهت "دينا" لإعداد
القهوة لثلاثتهم..

أما "عمر" فكان لا يزال يصارع صخب أفكاره، جلس في
انتظارهما على الكرسي الهزاز المجاور للشرفة الزجاجية المطلة
على ميدان مصطفى محمود..

- احك لي ما الموضوع لقد أفلقتني بالفعل..

انتبه "عمر" على صوت "سليم" ينتشله من دوامات عقله..

- أتذكر ذلك اليوم الذي سافرنا فيه إلى الإسكندرية وقضينا ليلة في فندق متروبول..

- وهل هذا يوم يُنسى!!

- أي يوم هذا يا سليم لم تحكي لي عنه!!

أتى صوت "دينا" متشبعًا بالفضول وهي تتجه نحوهما بصينية صغيرة عليها ثلاث فناجين من القهوة التركي..
وتسير في تودة خشية انسكاب أي فنجانٍ منهم..

تبادل "عمر" و"سليم" النظرات وانفجرا ضاحكين..
كانت ملاحظتها تشي بغيرة مفضوحة..

- احك لها أنت يا عمر حتى لا تظن أنني أخفي عنها شيئاً لا
أريدها أن تعرفه..

بدأ يعيد سرد ما حدث في تلك الليلة التي تحولت بعدها
لياليه إلى سلسلة من الأحلام غير المفهومة بالنسبة إليه.. حتى
كان الحلم الأخير الذي أيقظه فزعاً من نومه..

- رأيتها تُقتل أمام عيني يا سليم وأنا لا أستطيع أن أفعل أي
شيء.. لا أفهم ماذا يحدث لي.. لا أفهم أي شيء على
الإطلاق.. أكاد أجن.. إنها تنظر لي وتلومني على شيء لا
أعرفه..

- عمر.. هل فكرت أن تزور طبيباً نفسياً؟..

كانت "دينا" هي التي وجهت ذلك السؤال إليه بنبرة يشوبها مسحة من الحزن وهي ترخي عينيها وكأنها تتذكر ما أرادت دوماً نسيانه.. ثم استطردت قائلة..

- كنت أحلم بسليم كثيراً حين افترقنا وكنت دائماً ما أراه حزينا في الحلم.. كنت على وشك الانهيار العصبي.. فزرت طبيباً نفسياً ساعدني على أن أتماسك قبل أن أصاب بالاكئاب..

- يا دينا إنتِ كنتِ تحلمين بشخص تعرفينه وتربطكِ به علاقة حب وحزنكِ على فراقه هو ما جعلكِ تفكرين به طيلة الوقت حتى في أحلامك.. لكن أنا لا أعرف من

هي.. ولماذا أصبحت أراها في أحلامي بصورة متكررة بعد تلك الليلة التي قضيتها في ذلك الفندق..

- لا أدري ماذا أقول لك ولكن فلتجرب أن تستشير طبيباً لن تخسر شيئاً..

التفت "عمر" إلى "سليم" الذي كان صامتاً يفكر في أي تفسيرٍ منطقي لما يسمعه من صديقه.. حتى بادره الأول بسؤالٍ مباغت.. كمن وجد طوق نجاة..

- سليم هل بإمكانك أن ترسم لي صورة لها لو وصفتها لك؟

- بالطبع أستطيع.. هذا أمر يسير.. ولكن ماذا ستفعل بالصورة إن كنت لا تعلم من هي صاحبها الأصلية؟

(١٦)

وصل "موسى سمعان" إلى عيادة "جايكوب سولومون"
في الموعد المحدد..

استقبلته "إلينا" بحفاوتها المعتادة معه.. واعتذرت له عن
الدقائق القليلة التي سيضطر إلى انتظارها حين انتهاء المريض
السابق من جلسة تنظيف أسنانه..

أوما لها "سمعان" برأسه أن لا بأس.. جلس على أحد
مقاعد الانتظار يضع ساقاً فوق الأخرى محاولاً أن يخفي
ذلك التوتر الذي يشعر به..

كانت مهمته التي أوكلها إليه الجنرال "رايت" في ذلك الاجتماع الذي عقدوه في منزل "موردخاي" هو حشد أكبر عدد من اليهود للتوقيع على وثيقة تندد بالاضطهاد الذي يتعرض له اليهود في الإسكندرية لرفعها إلى المندوب السامي البريطاني للنظر فيها على أن يكون من يتولى أمر جمع التوقيعات هو "جايكوب سولومون" تحديداً الذي بدوره سيقوم بجمع المعلومات عما تتناقله الجاليات المختلفة في الإسكندرية عن الحرب الدائرة وعن موقف أفرادها من قوات الحلفاء وقوات المحور..

وعلى الرغم من تعجب "سمعان" من أن الجنرال "رايت" كلفه بهذه المهمة ولم يكلف بها "دانيال" شقيق "جايكوب" إلا أنه امتثل له امتثالاً تاماً.. شدد عليه "رايت" أيضاً ألا يفصح لجايكوب عن اشتراك "دانيال" في الأمر برمته.. نفذ

"سمعان" الأمر دون أن يهتم بمعرفة الأسباب التي دعت الجنرال لاتخاذ هذا القرار..

انتهى "جايكوب" من تنظيف أسنان المريض وتقدمه ناحية الباب يودعه وهو يغادر الغرفة..

لمح "موسى سمعان" جالسًا في قاعة الانتظار فتقدم نحوه مرحبًا به كما يجب أن يكون الترحاب بصديق قديم لأبيه "إيزاك" ..

طلب "جايكوب" من "إلينا" ألا تستقبل مزيدًا من المرضى لهذا المساء.. وأن تؤجل أي موعدٍ آخر للغد لما يشعر به من إرهاق منذ الصباح، اليوم هو الأحد وأيام الآحاد يواصل العمل في العيادة من الصباح للمساء عوضًا عن أيام السبت التي يغلق العيادة فيها ليتمكن من الذهاب إلى معبد

"إلياهو حنابي" في شارع النبي دانيال والذي لم يتخلف عن الذهاب إليه قط منذ طفولته..

- أسنائك بحالة جيدة سيد سمعان..

- بالتأكيد عزيزي جايكوب فهي تحت إشراف طبيبٍ ماهر..

حاول "موسى سمعان" أن يغلف مديحه بنبرةٍ مرحة حتى يخفف من وطأة ذلك التوتر الذي يتأجج بداخله مثل نارٍ مجوسيةٍ مقدسة..

سادت فترةٌ من الصمت بينهما.. قطعها كنصلٍ حاد سؤال "جايكوب"..

- في خدمَتِكَ سيد سمعان.. أخبرتني هاتفياً قبل حَيِّثُكَ أَنَّكَ
تُرِيدُنِي فِي أَمْرِ مَهْم.. كَلِي آذَانٌ مَصْغِيَةٌ لَكَ..

تنحنح "سمعان" قبل أن يدلوه بدلوه دفعةً واحدة.. وكأنه
يخشى أن تخذله شجاعته عن استئناف الحديث إن توقف عنه
لالتقاط أنفاسه..

كان "جايكوب" يستمع إليه بملامح جامدة لم يستطع
سمعان أن يستشف من خلالها إذا كان قد قبل ما عرضه عليه
لتوه أو لم يقبله..

لم يعلق "جايكوب" على كل ما سمعه ولكنه ابتسم
ابتسامة خالية من أي معنى زادت من توتر "سمعان"
وقلقه.. أخيراً نطق بتلك الكلمات المقتضبة بصوتٍ خاله
"سمعان" آتياً من بئر عميق..

- دعني أفكر في الأمر سيد سمعان وأعدك بأن أرد عليك في أقرب وقت..

لم يشأ "سمعان" في أن يلح عليه أو أن يوضح له مدى أهمية الأمر بالنسبة لليهود بوجه عام ليس فقط يهود الإسكندرية.. فآثر الصمت مكتفياً بتلك الإجابة المؤقتة من "جايكوب"..

(١٧)

كانت "نانسي" تقود سيارتها متجهةً إلى بيت "سارة" حين
رن هاتفها المحمول محدثاً ضجيجاً بنغمته الصاخبة التي
اختارتها خصيصاً لرقم أخيها "جورج" كما كان هو دومًا
مفعماً بكل صخب الحياة.. ولكنه لم يعد كذلك منذ أن أكد له
الطبيب عدم تمكنه هو وزوجته "كريستين" من الإنجاب
سويًا على الرغم من سلامة كل التحاليل التي أجراها لهما..

لا بد أنها مشاجرة أخرى كتلك المشاجرات التي باتت جزءًا
لا يتجزأ من حياة "جورج" و"كريستين" اليومية.. أصبحا
يتشاجران لأتفه الأسباب في كثيرٍ من الأحيان وربما يختلقان

في بعض الأحيان الأخرى أسبابًا للشجار.. إنه العجز عن
مواجهة العجز..

سألته "سارة" ذات يوم لماذا لم تتزوج حتى الآن.. لماذا
ترفض من يتقدمون لها واحدًا تلو الآخر بعد لقاء مرة أو
لقائين على الأكثر.. يومها أمسكت بالصليب الذهبي
الصغير المتدلي من عنقها وأشارت به إليها..

- أترين هذا الصليب.. إنه ما يجعلني أفكر ألف مرة قبل
الإقدام على هذه الخطوة.. بالرغم من تقدم الكثيرون
لخطبتي..

رفعت "سارة" حاجبيها دهشةً واستنكارًا وتساؤلًا..

- لا أفهم حقًا ما الذي تعنيه يا نانسي..

- لا أريد التسرع يا سارة.. فليس لدينا طلاق.. لا أود تكرار مأساة جورج وزوجته.. فهما لن يتمكنوا من الإنجاب إن ظلا سوياً.. كما أنهما لن يستطيعا الافتراق..

أرخت "سارة" هدييها وهي تهز رأسها علامة على التفهم والأسف..

محقة "نانسي" في كلامها على الرغم من مسحة الألم التي تتخلله.. تلك الفتاة التي تبدو دائماً لكل من حولها فتاةً مرحة لا تعرف الهموم طريقاً إليها.. تختزن في داخلها من الهموم ما لا يتوقعه أحد..

لم يكن لديها رغبة أن تجيب اتصال أخيها في ذلك الوقت تحديداً حتى لا يتشتت ذهنها قبل موعدها مع "سارة"..

فمشاكل "جورج" مهما تعاظمت تبقى هينة مقارنة بالمشكلة
التي تواجهها "سارة" ..

في بداية معرفتها بها وبعدما سرد لها "يوسف" قصتها ..
مازحتها ذات يوم قائلة ..

- إنتِ محظوظة .. على الأقل تستطيعين فهم أشياء كثيرة
تشعرين بها وتمربك .. البعض لا يتمكن من هذا بسهولة
فلا يدري لماذا يعيش ومن أجل ماذا ..

ابتسمت "سارة" يومها ابتسامةً باهتة قبل أن تجيبها
بأسى ..

- لست محقة يا نانسي.. لأن هناك أمورًا لو عرفناها لما شعرنا
بالراحة كما تظنين.. بل على العكس نتعب حين نعرفها
ونتمنى لو أننا نعيش مثل غيرنا.. لا يعرف ولا يتذكر..

وصلت "نانسي" إلى شارع فؤاد لتجد "سارة" في انتظارها
أمام مدخل العمارة التي تقطنها.. ركبت بجوارها وانطلقتا
إلى مقهى "ديليس" ليقابلا "يوسف" الذي لم يكن أفضل
حالةً منهما..

(١٨)

كانت تتمشى في شارع سعد زغلول لا تلوي على شيء..
سألت عنه موظف الاستقبال بفندق "متروبول"، أبلغها أنه
لم يأت منذ ثلاثة أيام.. إذن لم يعد من القاهرة بعد.. أخبرها
في آخر لقاء لهما في الغرفة ٣٠٩ أنه سيتغيب في القاهرة لبضعة
أيام لمناقشة بعض التفاصيل بالفيلم الجديد الذي يعمل به
مساعدًا للمخرج، والذي اقترب موعد تصويره.. كان قد
طلب منها أن ترافقه كي يتسنى له تقديمها لمخرج الفيلم ربما
تحتفى بفرصة أداء دور ثانوي به.. ولكنها تعللت بعدم
مقدرتها على السفر في الوقت الحالي لرعاية أمها المريضة
والوحيدة..

حين التقتة ذلك اليوم الذي واعدتها فيه باللقاء أمام فندق "متروبول" .. اصطحبها في جولةٍ خاطفةٍ إلى القلعة لمعاينة موقع تصوير بعض المشاهد السينمائية .. ثم دعاها إلى الغذاء في مطعم "أتينوس" القريب من ميدان سعد زغلول بمحطة الرمل .. لم يكف عن الحديث عن نفسه وعن أصوله الإيطالية وعن أجداده الذين استوطنوا الإسكندرية منذ سنواتٍ طويلة جدًا .. أخبرها أنه لم يسافر إلى إيطاليا من قبل ولكنه يرغب في زيارتها يومًا ما .. وأنه لا يعرف أي شيء عن أقربائه هناك سوى ما كانت ترويهِ أمه عنهم من آنٍ لآخر .. كانت تسير بجواره تستمع إليه كطفلة صغيرة ساذجة لم تكتشف العالم بعد .. دست ذراعها في ذراعه وكأنها تخشى أن تضل الطريق بدونه أو أن تضيع منه في الزحام .. انتابه شعورٌ بأنها تمنحه صك ملكيتها بطريقتها الخاصة ..

قال لها مزهواً بأنه التقى "كورادو بيرجولسي" المصمم المعماري الذي صمم "متروبول" أكثر من مرة في عدة مناسبات للجالية الإيطالية.. وأنه يبيت أحياناً قليلة بالفندق.. في غرفة مطلة على البحر بالطابق الثالث حين يرغب في تمضية الليل بمرافقة الموج لأن شقته التي يقطنها بحي الإبراهيمية تقع في أحد الشوارع الداخلية فلا يتمكن من مشاهدة هذا العالم الأزرق من شرفتها..

جامحٌ كالبحر.. عاشقٌ للمغامرة.. هكذا وصف لها نفسه باختصار.. ثم أردف وهو يميل بوجهه على وجهها وعاشقٌ للجمال أيضاً..

تخضبت وجنتاها بحُمْرة تشبه لون فستانها لتزيدها توهجاً وتزيد أعصابه اشتعالاً..

حدثته عن فنائها المصريت المفضلتين.. "راقية
إبراهيم".."و"كاميليا"..
مازحها معقباً..
- الاثنان يهوديتان..
أربكها تعقبيه فلم تفهم مغزاه.. فبادرته سائلةً بتعجب..
- أئمة مشكلة؟
هز كتفيه بلا مبالاة وهو يجيبها..
- لا.. ولكن اليهود يناهضون دول المحور.. وإيطاليا دولة
من هذه الدول..
١٤٢

لم تفهم.. بل لم تبال بما قاله.. لم تشغل السياسية بالها يوماً..
كل ما تفكر فيه هو السينما والشهرة.. ولكنها على الرغم من
ذلك أحست برعشة خوفٍ تسري في أوصالها.. خافت أن
يبتعد عنها وتفقد حلمها في التمثيل إن هي أفصحت له عن
هويتها..

ضمها إليه أكثر وهما يقتربان من شارع فؤاد.. وهو يهمس
في أذنيها بصوت تفوح منه رائحة الغواية..

- لم تخبريني بعد.. من أنت؟

هربت الدماء من وجهها ولم يسعفها تفكيرها بإجابة
تعفيها من أن تحكي له عن عائلتها وتخرجها من هذا المأزق
بلا خسارات محتملة..

رفعت عينها إلى أعلى علّ السماء تسعفها.. لمحت لافتةً
على شرفة إحدى العمارات تحمل اسم صاحب مكتب
محاماة.. "ميلاد قسطنطين"..

- اسمي "سارة قسطنطين".. أعيش مع أمي التي تعمل
بالحياكة.. بعد أن هجرنا أبي منذ زمنٍ طويل ولم نعد نعرف
أي شيء عنه..

- لابد أن والدتك هي التي حاكت لك ذلك الفستان المبهر
الذي كنتِ ترتدينه في الحفل..

ارتبكت وهي تحاول أن تقدح زناد عقلها ليلهمها بكذبةٍ
ثانية تغطي على كذبتها الأولى..

- بلى هي.. رأيتَه لدى ابنة رجل ثري تَحِيكُ والدتي الملابس
 لأسرته وطلبت منها أن تَحِيكَ لي مثله.. ذهبتُ إلى الحفل
 متسللة حتى أقابل ذلك الممثل الشهير الذي يحضره ولكن
 لسوء حظي أن رأني هذا الثري ووبخني أمام الجمع على
 وجودي وعلى ارتدائي فستانًا مماثلًا لفستانِ ابنته.. ولذلك
 كنتُ أبكي وحدي بالشفرة..

مسح على شعرها بحنان وطبع قبلةً على جبينها.. زفرتُ
 بارتياح بعد أن أَلَقْتُ عليه تلك الكذبة الصغيرة التي
 سارعتُ بتأليفها حتى تُعفي نفسها من حرج الاعتراف له
 بهويتها الحقيقية.. تباطأت في السير وهي تمرُّ من أمام تلك
 اللافتة التي ذكرتها بذلك اليوم الذي ورطتُ فيه نفسها في
 تلك الحكاية التي اخترعتها.. تحسستُ بطنها وتمنتُ لو أنها
 لم تَكْذِبْ تلك الكذبة أبدًا..

(١٩)

كادت الأرض أن تميد بهدى وابنتها تهذي بكلامٍ غير مفهوم لها وتحديثها عن أشخاصٍ وأسماءٍ لا وجود لهم.. حاولت أن تردد على طفلتها اسم أبيها مرات ومرات حتى تكرره الطفلة وراءها.. ولكن "سارة" في كل مرة تعيد ماقالته في المرة الأولى..

- اسمي سارة موسى سمعان..

لم تتمالك "هدى" نفسها وانفجرت في البكاء وهرعت تتصل بزوجها "رياض وهيب" الذي كان منهما في مراجعة ملفٍ مهمٍ من ملفات شركته التجارية..

- مصيبة يا رياض.. سارة عادت تتفوه بكلام غريب جداً
هذا اليوم.. أكاد أموت من الخوف عليها.. تعالى حالاً..

لم تمهله فرصة للرد أو محاولة الفهم.. ألقى بهاتفها
المحمول وأسهرت إلى ابنتها تحتضنها وتقرأ عليها آيات من
القرآن..

مسحت "سارة" بيديها الصغيرتين دموع "هدى"
وطبعت قبلةً على خدها قبل أن تستطرد قائلةً ببراءة..

- صديقي يا ماما.. أنا اسمي سارة موسى سمعان.. وكنت
أسكن في حي زيزينيا في إسكندرية.. في بيت كبير.. رأيت
دانيال يُقتل أمام عيني قبلما يطلقون رصاصهم عليّ أنا
أيضاً.. هنا..

أشارت "سارة" أعلى بطنها.. أصاب الهلع هدى وهي تتذكر تلك الندبة التي ولدت بها ابنتها أعلى البطن.. يومها سألت طبيب النساء والولادة عنها.. لم يستطع أن يحدد ماهيتها ولكنه ضحك قائلاً..

- ربما كنت تتوهمين على بندق يا سيدتي..

رفعت "هدى" فستان ابنتها الصغيرة لتأمل بوجوم مكان الندبة وتنخرط في بكاءٍ مريع.. في الوقت الذي كان "رياض" يدير فيه المفتاح في كالون باب الشقة.. ليدخل مسرعاً إليها مستفسراً عما أصاب ابنته الوحيدة بينما كانت "سارة" تنظر إلى أمها بأسٍ محاولاً تهدئتها وهي تربت على كتفها بيدها الرقيقة..

- ما بك يا هدى.. جعلتني أترك عملي وأتي مسرعاً.. ماذا جرى أفهميني..

التفتت إليه بعينين متورمتين من البكاء وقالت بصوتٍ متهدج اختلط بنحيبها..

- اسأل ابنتك يا رياض.. ستحكي لك هي عن كل شيء..

روت لهما الطفلة عن ذلك المنزل الكبير في حي زيزينيا بالإسكندرية.. حكّت لهما عن أبيها الذي كان يومًا "موسى سمعان"..

أخبرتاهما عن "دانيال" الذي قتله جنود الألمان قبل أن يطلقوا النار عليها.. قالت لهما أن "جايكوب" شقيق "دانيال" كان يعلم بكل تفاصيل حكايتها مع "أنطونيو"..

وصفتُ لهما أشياء كثيرة جعلتهما في حالةٍ من الذهول التام.. صمتتُ برهة ثم أخبرتهما بما لم يتوقعا سماعه على الإطلاق من طفلة صغيرة والذي أصابهما بصدمة بالغة.. لم يجدا بُدًا هذه المرة إلا أن يأخذا ما حكته "سارة" على محمل الجد.. إذ كيف لطفلة تبلغ من العمر خمسة أعوام فقط أن تروى كل هذه التفاصيل والأحداث عن مكان لم تزره أبدًا من قبل.. ومن أين لها أن تجيء بهذه الأسماء والشخصيات.. وكيف لها أن تعرف عن أطراف الصراع في الحرب العالمية الثانية..

(٢٠)

كان "جايكوب" قد أفصح لوالده "إيزاك" عن شكوكِ
تساوره من تعاون "دانيال" مع مركز قيادة الجيش البريطاني
القريب من ميناء الإسكندرية ونقله لمعلومات عن بعض
أفراد الجالية الإيطالية الذين كلفوه بجمع معلومات عنهم لما
يحوّم حول بعضهم من شبهات التعاون مع قوات "هتلر"
المتمركة في العلمين..

وها هو "موسى سمعان" يأتيه بالنبأ اليقين.. ويؤكد له
صدق ظنونه أن هناك تحركاً سرياً ما من بعض اليهود لإثبات
الولاء للإنجليز من أجل حماية مصالحهم في مصر وربما من
أجل حمايتهم من الألمان لو كسبوا المعركة..

يهودي كان يخشى تمكن الألمان من احتلال الإسكندرية.. كانت فرائصه ترتعد كلما تخيل جنود "هتلر" يسوقونه هو وزوجته وعائلته إلى محرقة من محارقهم..

ولكنه على الرغم من هذا الخوف الذي كان يسيطر عليه كلما طاف بباله هزيمة الإنجليز.. إلا أن هناك شيئاً بداخله كان يمنعه من الانخراط في عمل كهذا.. ماله هو ومال المعارك الدائرة بين قوات الحلفاء وقوات المحور.. إنه طبيب أسنان في بداية حياته المهنية حديث العهد بالزواج.. كل ما يحلم به في هذه الحياة أن يعيش بسلام مع زوجته وأن يرزقه الله بالأبناء.. أسرة صغيرة تنعم بعيشٍ هادئ لا غير..

ماذا لو رفض تنفيذ ما طلبه منه "موسى سمعان".. هل سيناصبه العداء هو ومن معه من اليهود المشاركين له في هذا

العمل السري.. وماذا لو قبل هل سيظل ينعم بهدوء العيش الذي ينعم به الآن.. كان حائرًا.. وما زاد من حيرته هو انضمام "دانيال" إلى هذه الجماعة السرية.. إن شابًا مثل "دانيال" لم يكن يشغل باله من قبل سوى اللهو مع الأصدقاء والرحلات والسفر.. ماذا اعتراه ليقدم على هذا العمل المحفوف بالمخاطر.. فلو أن الألمان استطاعوا هزيمة البريطانيين سيقومون بلا شك بإعدام كل من تعاون مع الإنجليز ضدهم.. تحسس رقبتة.. أحس بدبيب الخوف يسري في مفاصله.. تهاوى على المقعد والعرق يتصبب من جبينه.. أسند رأسه بين راحتيه.. تلا بعض الصلوات سائلًا الرب أن يرشده الطريق.. زفر بارتياح وقد عقد العزم أن يرفض تمامًا ما طلبه منه "موسى سمعان".. فلن يشي بمرضاه ولن يعمل جاسوسًا لصالح الإنجليز ولا لصالح أي دولة أخرى..

كان يجلس في عيادته التي ذهب إليها مبكرًا في هذا اليوم وقبل موعد استقبال الزائرين ببضع ساعات.. لم يكن موعد عمل "إلينا" قد حان بعد.. انتشله جرس الهاتف من دوامة أفكاره.. رفع السماعة ليجد "سارة" على الجانب الآخر من الخط.. بدا أثر البكاء واضحًا على صوتها.. طلبت منه أن تراه على وجه السرعة.. أخبرته أن الأمر لا يحتمل التأجيل.. كان مندهشًا إلى الحد الذي لم يدرِ بماذا يجيبها.. طافت برأسه الظنون.. أيمن أن تكون "سارة" مشاركة معهم في جماعتهم السرية.. أيعقل أن تكون هذه الفتاة ذات العشرين ربيعًا هي أيضًا جاسوسة يهودية لصالح الإنجليز..

(٢١)

حين قرر "عمر" أن يستقل مترو الأنفاق ليذهب به من المعادي إلى الزمالك أملاً في أن يصادف ذلك الوجه في إحدى المحطات أو العربات.. كان ينزل من العربة في كل محطة يتوقف بها القطار ويطوف طوافاً سريعاً بالمحطة كلها.. ثم يعاود ركوب القطار للمحطة التي تليها.. ظل هكذا من محطة ثكنات المعادي إلى محطة السادات بالخط الأول من المترو ومن محطة السادات إلى محطة الأوبرا في الخط الثاني..

لم يفصح لسليم عن السبب الحقيقي لتأخيره حتى لا يظن فيه الجنون بحق..

إن هذه المرأة التي يراها تستنجد به بلا شك.. هي يمكن أن تكون معرضة لجريمة قتلٍ بالفعل.. ولكن كيف له أن يجدها ليحميها من هذا الخطر الذي يحدق بها..

مسح على وجهه بكف يده وهو يحاول أن يعتصر ذهنه ربما يصل إلى حلٍ منطقي قد يساعده في الوصول إليها.. لا بد أن يعود إلى الإسكندرية مرة أخرى.. حيث كانت البداية.. فهناك يكمن حل هذا اللغز الذي بات يؤرقه ويفسد عليه أيامه ولياليه.. سيذهب هذه المرة بمفرده حتى يتسنى له البحث عنها بتأن..

ربما عليه الآن أن يتعجل "سليم" في الانتهاء من رسم صورتها والتي كان قد أملاه أوصافها في لقاءهما منذ أيام..

سيجدها.. سيعمل المستحيل حتى يجدها.. ويجد إجابات
 لتلك الأسئلة الكثيرة التي تلقى في بحار الحيرة بلا رفق أو
 رحمة.. سيحذرهما مما يحدق بها من خطر ثم يعود للممارسة
 حياته بشكلٍ طبيعي بعد أن ترحل هي عن أحلامه.. فحين
 ينقذها من هذا المصير حتمًا ستنتهي زياراتها له في منامه..
 أليست هذه هي الرسالة التي اختاره القدر ليلغها إياها..

حديثٌ طويلٌ ظل يدور بينه وبين نفسه حتى أصاب رأسه
 صداغٌ شديد.. ابتلع قرصين من المسكن وأعد لنفسه فنجانًا
 من القهوة التركي قبل أن يشرع في كتابة بعض السطور عن
 فتاة الحلم التي لا يعرف السبيل إلى الوصول إليها..

فكر أن يتصل بمادلين علّها تخفف عنه بعض ما يعانیه من
 حيرة.. سيحكي لها عمّا يمر به ربما وجد لديها تفسيرًا

منطقيًا.. كانت قد حدثته يومًا عن كتاب قرأته يسرد بعض
حكايات لأشخاص يمتلكون قدرات خارقة منها التواصل
عبر الأحلام.. لا يدري ما الذي يشده إلى "مادلين" تحديدًا..
أهي ثقافتها الواسعة والمتنوعة أم لهجتها الفرنسية الأنيقة
المحبة إلى قلبه.. فعلى الرغم من أنه صادف في حياته العديد
من النساء من مختلف جنسيات العالم إلا أن الناطقات
بالفرنسية منهن فقط هن من يثرن إعجابه ويستأثرن
باهتمامه.. عدل عن فكرته أو أجلها بعض الوقت حتى يكون
قد استجمع كل أفكاره عما يمر به ليتمكن من قصه عليها
بوضوح..

(٢٢)

لم تمنح تلك اللحظة أبداً من ذاكرة "دانيال" .. ولم يستطع أن يتخطى ألمها بعد.. كيف قابلت اشتياقه بفتورٍ أصاب قلبه في مقتل .. وكيف أخبرته بعباراتٍ ثلجية بوجود ذلك الآخر في حياتها..

كان ينتظر خروجها من معبد "يعقوب ساسون" بحي جليم .. ليدعوها إلى الغذاء ثم يصطحبها إلى مدرسة التانجو التي تتلقى فيها أخته "كلير" تدريبها الأسبوعي .. علم بوجودها في المعبد من "كلير" التي هاتفتها في الصباح لتبلغها ببدء موعد فصول تدريب التانجو الجديدة، والتي كانت "سارة" قد سألتها عنها سابقاً لرغبتها في الالتحاق

بها.. أبلغتها الأخيرة بأنها ستذهب إلى المعبد أولاً ثم تمر عليها مروراً سريعاً بمدرسة التانجو قبل أن تذهب إلى مشوارٍ مهم لا تستطيع تأجيله.. خرجت "سارة" من المعبد تتلفت يميناً ويساراً باحثةً عن سيارة أجرة تقلها إلى وجهتها.. حيث كانت قد صرفت السائق الخاص بعائلتها حتى لا يكتشف سرها ويفشيه إلى أبيها.. لمحها "دانيال" فهرع إليها ملوحاً بيده.. ارتبكت لوجوده الذي لم تضعه في حساباتها.. بدا الضيق على ملامحها.. اقترب منها محاولاً تقبيلها إلا أنها تراجعت سريعاً لبضع خطواتٍ مشيخةً بوجهها بعيداً عنه..

- ما بكِ سارة؟

قالها غاضباً من تصرفها المفاجيء له والذي لم يعتده منها..

- لا شيء دانيال ولكن لا أحب أن يراني المارة وأحدهم
يقبلني على قارعة الطريق..

- أحدهم؟ تعين بها أنا يا سارة.. هل صرْتُ بالنسبة إليك
مجرد أحدهم؟..

- دانيال.. أرجوك.. أنت صديق عزيز.. لا أريد إغضابك
ولكن..

- صديق!! كنت أظن أنك تبادليني نفس المشاعر..

- دانيال.. إني آسفة.. كنتُ مخطئةً حين سمحت لك بالبوح
بمشاعرك تجاهي.. سامحني فأنا لن أستطيع مجاراتك في
هذه المشاعر بعد الآن..

امتقع وجه "دانيال" وكاد يصيح بها غاضباً ولكنها مضت في طريقها دون أن تمهله أي فرصةٍ لمزيدٍ من الحديث.. ركض نحوها ليقف في مواجهتها ويمنعها من التقدم في سيرها.. كان الشرر يطل من عينيه وعروق وجهه تنتفض.. حاولت إبعاده عن طريقها لتكمل سيرها إلا أن نظراته أثارت الرعب في نفسها..

- أرجوك دانيال دعني أمضي.. لا أستطيع مبادلتك أي مشاعر لأنني.. لأنني..

- ماذا؟.. لأنك ماذا يا سارة؟..

كان صوته بدأ في الارتفاع وهو يصيح بها حتى أن بعض المارة التفتوا نحوهم في فضول..

- لأنني أحب شخصًا آخر يا دانيال.. وذهابة للقاءه فدعني
أمضي في طريقى من فضلك..

ألقت كلماتها كقذيفة مدمرة.. ثم فرت من أمامه راكضة
قبل أن يستفيق من صدمته.. وألقته هو ونفسه في هوة
سحيقة من الغضب والرغبة في الانتقام لرجولته التي طعننها
بسكين غدرها.. قرر أن يتبعها في ذلك اليوم حتى يعرف من
ذلك الوغد الذي حطم أحلامه وسرق منه فتاته..

(٢٣)

يجلس ثلاثتهم على ذات الطاولة في ركن قصي بمقهى
"ديليس" ..

رجل في الستينات من عمره قمحي البشرة.. خفيف شعر
الرأس أشيبه.. عيناه الرماديتان أشبه بعيني ذئب عجوز..
رغم كهولته إلا أنه متناسق القوام.. متوسط القامة.. يتحرك
ببطء وروية وكأن الدروس التي لقنها إياه الزمن علمته أن
يبقى حذرًا حتى وإن لم يكن هناك ما يستوجب الحذر منه..

فتاة شقراء.. ينسدل شعرها على كتفيها كموج البحر
الهادر.. عيناها بلون السماء الصافية.. أنفها الدقيق يدل على

ما تتمتع به من أنفة وكبرياء.. عروق يديها النافرتين توحى
بأنها تنحدر من سلالة أرسقراطية.. بياض بشرتها المشرب
بالحمرة يشي بانتمائها إلى عرق أجنبي.. جميلة ذلك الجمال
المقدس الذي تتأمله دون أن يغريك بالاقتراب منه..

وفتاة خمرية اللون.. ذات شعر أسود غجري يصل إلى
منتصف ظهرها.. عيناها بنيتان بلون قهوة نضجت على نارٍ
هادئة.. عميقتان كنافذتين على عالم مجهول.. شفتاها
مكتنزتان وكأنهما في حالة استعداد دائم لتلقي قبلات عاشق
ما.. نظراتها شاردة وكأنها هي معلقة بمجهول.. جميلة ذلك
الجمال الذي يجعلك تدمنه ولكنك أبداً لا تقوى على امتلاكه
من فرط تمرده..

- أرغب في مقابلة عمري يوسف وأريدك أن تساعدني في أن أحكي له عن كل شيء.. أريد أن أعرف لماذا فعل بي ذلك..

- ولكن ربما هو لا يتذكر أي من تلك التفاصيل التي تتذكرينها أنتِ يا سارة وفي هذه الحالة لن تجدي إجابة على أي سؤال يدور بداخلك..

- أن يتذكر ليس هذا بالأمر الصعب.. يمكن لأي معالج متخصص في التنويم المغناطيسي أن يساعده على التذكر في جلسة أو اثنتين ربما..

كانت "نانسي" منشغلة في الرد على رسائل "جورج" التي أرسلها لها على الـ whatsapp.. بدا عليها الانزعاج والعصبية وهي تتابع الحديث الدائر بين "سارة" و"يوسف" وفي

الوقت نفسه تستقبل الرسائل المتتالية التي لا تزال تصلها من أخيها "جورج" ..

- آسفة يا سارة.. آسفة يا يوسف.. مضطرة أن أستأذنكما بعض الوقت ثم أعود.. لابد أن أهاتف جورج.. يبدو أنه يواجه مشكلة كبيرة هذه المرة عن المرات السابقة..

- جورج يتعامل مع نانسي على أنها أمه لا أخته..

قالها "يوسف" وهو يزم شفتيه متعجباً من إقحام "جورج" المستمر لنانسي في مشكلاته الزوجية وبعد أن خرجت الأخيرة من المقهى متجهة إلى تمثال سعد زغلول الذي يتوسط محطة الرمل.. ابتسمت له "سارة" ابتسامة مؤيدة ثم أمالت رأسها إلى الوراء في محاولة منها لتذكر أمرٍ ما..

- أحاول أن أتذكر اسم الطبيب المتخصص في هذا المجال الذي اصطحبني إليه والدي وأنا طفلة ولكني لا أستطيع.. سوف أتصل بوالدي لسؤاله..

التقطت هاتفها المحمول من على الطاولة.. أرسلت رسالة إلى والدها تطلب منه مهاتفتها لأمرٍ مهم.. طلبها على الفور.. فسألته أن يرسل لها اسم ذلك الطبيب الذي اصطحبها إليه وهي طفلة.. أو أي طبيب يُعد متخصصًا في هذا المجال.. وأبلغته أنها ستذهب إلى القاهرة بضعة أيام لتزور قبر أمها ولتطمئن على أحوال منزلهم بالزمالك.. ثم تعود ثانية للإقامة في الإسكندرية.. أنهت المكالمة مع أبيها بقبلة عبر الأثير..

- هل تودين أن أذهب معكِ إلى القاهرة..

- لن أحاول مقابلته هذه المرة دي يا يوسف.. فقط
سأحاول معرفة كيف أصل إليه.. إلى أن نهتدي لحيلة كيف
نجعله يتذكرني..

(٢٤)

تناقل اليهود بسريةً بالغة وبهلعٍ شديد خبر مقتل الفتى "عزرا" ذلك الشاب النحيل على يد بعض جنود القوات النازية لانكشاف أمر تجسسه على معسكر الألمان بالعلمين لصالح القوات الإنجليزية.. أكد الجنرال الإنجليزي "رايت" ذلك الخبر لديفيد موردخاي الذي بدوره قرر الرحيل إلى المغرب قبل أن ينكشف أمره هو أيضاً..

هاتف صديقه "موسى سمعان" ليطلب لقاءه حتى يبلغه قراره بالسفر.. كان يوماً عصيباً بالنسبة لكليهما.. ولكنهما حاولا ألا يظهر انزعاجهما لأي من المحيطين بهما.. فاتفقا أن يتقابلا في مكتب الأخير بعد ساعة من مكالمتهما الهاتفية..

كان "موردخاي" قد رتب لكل شيء يتعلق بسفره وبدأ بالفعل في بيع ممتلكاته في الإسكندرية لبعض أفراد الجالية اليونانية بها.. حاول "موسى سمعان" أن يتماسك قدر استطاعته أمام العاملين بمكتبه وهو يتابع سير العمل اليومي.. فكر في مهاتفة "ليليان" زوجته للتشاور معها بشأن رحيل العائلة إلى المغرب في أقرب وقت ولكنه عدل عن الفكرة انتظاراً لما سيسفر عنه اجتماعه بديفيد موردخاي..

مر الوقت عليه بطيئاً ورتيباً.. أشعل غليونه.. علّ تدخين تبغه المفضل يخفف من توتره.. إلا أن حديث العاملين بالمكتب عن الحرب والذي ترامى إلى مسامعه لارتفاع صوتهم نسبياً وحِدّة البعض منهم في سرد الأخبار زاد من توتره وعصبيته.. طرق "شلومو" باب المكتب عدة طرقات منتظمة حتى أذن له "سمعان" بالدخول..

- سيد سمعان.. دانيال إيزاك هنا ويريد مقابلتك لأمرٍ خطيرٍ
وعاجل..

لم يكن "موسى سمعان" في حالة تسمح له بمقابلة
"دانيال" أو أي شخص آخر قبل لقائه بموردخاي ولكنه
أوماً لشلومو برأسه أن دعه يدخل.. حاول أن يبدو طبيعيًا
أمام "دانيال" الذي كان هو نفسه متوترًا حين جلس على
المقعد المواجه لمكتب "سمعان"..

- سيد سمعان.. إن حياتي أنا أيضًا باتت مهددة.. لقد كنت
أرافق عزرا قبل مقتله مباشرةً ولكنني لم أصل معه إلى
معسكر الألمان.. تركته قبل المعسكر بحوالي مائة متر أو
أكثر بقليل.. أظن أن أحد الجنود الألمان قد رآني وأنا أفرُّ
هاربًا حين سمعت صوت إطلاق الرصاص على عزرا..

زاد ما رواه "دانيال" لتوه من توتر "سمعان" .. فلم يتمالك
أعصابه وصاح غاضباً فيه وهو يخطب على مكتبه بقبضته ..

- إن حماقاتك المستمرة ستودي بنا جميعاً إلى الهلاك .. كان
خطؤك وحدك أن رافقت عزرا .. فقد حذرك موردخاي
من التصرف دون الرجوع إليه .. وها أنت تتماهى في
أخطائك الحمقاء وتأتي إلى مكنتي بعد اكتشاف الألمان
لأمرك ..

ارتعدت فرائص "دانيال" الذي لم يكن يتوقع رد فعل
كذاك من "موسى سماعيل" .. حاول أن يدافع عن نفسه
ولكنه لم يستطع .. حاول أن يفشي السر الذي دفعه لمرافقة
"عزرا" في ذلك اليوم ولكنه لم يقو على ذلك ..

- لم أحضر إلى مكتبك لأطلب منك الحماية هنا سيد سمعان.. ولكنني أرغب في السفر إلى بريطانيا.. أبي إيزاك لن يوافق على سفري أعلم ذلك.. فكلما حاولت مناقشته في الأمر أنهى النقاش بالرفض التام.. جئت إليك فقط لكي تساعدني في الرحيل..

هدأ "سمعان" بعض الشيء وطلب منه أن ينتظر في مكتب "شلومو" حتى ينهي اجتماعه مع "موردخاي" الذي كان على وشك الحضور.. ووعدته أن يناقش الأمر مع الأخير ربما استطاع اصطحابه معه إلى المغرب.. جلس "دانيال" في مكتب "شلومو" ينتظر ما سيسفر عنه الاجتماع من قرار بشأنه.. عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي تتبع فيه "سارة" ليعرف من هو ذلك الرجل الذي اختطفها من عالمه..

(٢٥)

بعض المدن تبدو أبهى في فصلٍ بعينه والإسكندرية ليست ملكة البحر المتوسط فحسب كما قال الأديب "إيميل لودفيج" ولكنها ملكة البحار جميعاً.. وأميرة المدن.. الشتاء يمنحها جمالاً من نوعٍ خاص.. يصعب وصفه بقدر ما يسهل التغلغل فيه.. ولشتاء هذه المدينة معها حكايات قديمة.. إحداها اكتملت ذات مساء حين عادت لمقابلة جايكوب مرة ثانية.. كانت في الخامسة حين زارته مع أبيها في منزله وكان هو قد جاوز التسعين ببضع سنين..

لم يستطع "رياض" أن يتغافل تلك المرة عن كل ما ذكرته طفلته "سارة" في حديثها عن تلك الأسماء والشخصيات

والأحداث.. فأرسل أحد الموظفين بشركتته للسؤال عن عائلاتٍ بعينها عاشت بالإسكندرية منذ زمن بعيد.. لم يخبره بالطبع عن السبب الحقيقي وراء هذا الفضول المفاجيء الذي انتابه لمعرفة أية معلومات تشير إلى وجود تلك العائلات اليهودية في تلك الفترة .. عاد الموظف بعد ثلاثة أيام إقامة بالإسكندرية على نفقة "رياض وهيب" الشخصية.. قضاها في البحث والتقصي عن عائلتي "موسى سمعان" و"إيزاك سولومون" .. و"أنطونيو جيانو" الذي لم يستطع أن يصل أي معلومات بشأنه.. أما عائلتي "سولومون" و"سمعان" فتحقق من وجودهما بالفعل.. دله أحدهم أيضًا إلى عيادة طبيب الأسنان "يوسف سليمان" ابن "جايكوب سولومون" أو "يعقوب سليمان" كما أطلق على نفسه فيما بعد..

قرر "رياض وهيب" اصطحاب ابنته إلى الإسكندرية بعدما تأكد من أن تلك الأسماء التي ذكرتها كان لها وجودًا فعليًا هناك.. رفضت "هدى" في البداية خوفًا على ابنتها من مواجهة أمر كهذا إلا أنه أقنعها بأن هذه الرحلة هي السبيل الوحيد إلى فهم الأمر برمته.. حجز غرفة مزدوجة في فندق "ميركيور" مطلة على البحر.. ترك بها زوجته وطفلته وذهب هو للقاء "يوسف سليمان" في عيادة الأسنان الخاصة به..

كان "يوسف" لا يزال شابًا يافعًا في ذلك الوقت يخطو أولى خطواته في مهنته كطبيب أسنان.. ترك له والده عيادته الخاصة بعد أن أصابته جميع أمراض الشيخوخة فأعجزته عن الاستمرار في العمل.. كانت العيادة لا تزال خالية من المرضى حين وصل إليها "رياض".. نقد الممرض ثمن الكشف ليدخله من فوره إلى الطبيب.. تأمل "رياض"

المكان بعينه وأشباح ماضيٍ مخيفٍ تكاد تنشب أظافرها في
حاضره..

بادره "يوسف" بسؤال معتاد..

- ما هي شكوتك؟

- الحقيقة يا دكتور يوسف.. لم أت إليك من أجل أسناني
وإنما لأمر آخر تماماً..

عقد "يوسف" حاجبيه وهو يهز رأسه مستعجباً..

- ما هو هذا الأمر؟.. على العموم تفضل يمكنك الحديث
وسأستمع إليك بالتأكيد..

مرت ثواني ثقيلة على "رياض" قبل أن يستجمع شجاعته ويروي له حديث الجنون الذي قصته عليه طفله "سارة"..
انتهى من حديثه ليجد "يوسف" يحملق فيه بدهشة فاغراً فاه..
..

- بالفعل كان لي عم اسمه دانيال.. اختفى ذات يوم.. ولا أحد يعلم أين اختفى.. وعمتي حقا اسمها كليز ولكنها هاجرت كندا من فترة.. ووالدي يعقوب أو جايكوب حكى لي عن صديق لجلي اسمه موسى سمعان ولكنه مات منذ فترة طويلة بسكتة قلبية مفاجئة بعدما اختفت ابنته سارة في نفس اليوم الذي اختفى فيه عمي دانيال..

اتسعت حدقتنا "رياض" وهو يسمع من "يوسف" ما يؤكد له كل ما روته طفلته من حكاياتٍ عن "سارة موسى سمعان" ..

- هل والدك لا يزال على قيد الحياة؟

ألقى "رياض" سؤاله بلهفة من يستغيث ببصيص ضوءٍ في نفقٍ مظلم ..

- نعم .. ولكنه رجل عجوز جدا الآن كما أنه مريض وملازم للفراش ولا يستطيع الخروج من المنزل للأسف ..

- أسمح لي أن أصطحب ابنتي "سارة" لزيارته؟

كان سؤالاً مبالغاً ومربكاً في الوقت ذاته.. ولكن ما كان
"يوسف" ليرفض طلباً كهذا بعد أن أشبعه الحديثُ فضولاً
للتأكد من صحته..

(٢٦)

كان يجلس على أحد المقاعد المرتفعة التي تواجه البار الصغير الذي يقع في ركنٍ من أركان بهو فندق "متروبول" ..
يحتسي كأسًا من النبيذ الأحمر .. ويستمع إلى حديث بعض النزلاء من الإنجليز الذين كانوا يقفون على مقربةٍ منه في انتظار هبوط المصعد الخشبي من الطابق الرابع ..

- إن انتصار بريطانيا بات وشيكًا يا عزيزي .. فالجنرال مونتهجري الذي عينه تشرشل قائدًا ميدانيًا للقوات البريطانية والحلفاء في شمال إفريقيا عنيدٌ بما يكفي ليحقق لنا النصر ..

-سمعت أنه صمم على طلبه الذي رفعه إلى تشرشل بأن تكون قواته متفوقة في العتادِ والعُدّة على قوات جيش هتلر النازي..

- إنه عنيدٌ كما قلت لك.. ولن يقبل سوى هزيمة قوات المحور..

كان "أنطونيو" ينصتُ باهتمامٍ وتركيزٍ لكل كلمة في حديث هؤلاء البريطانيين.. حتى دنا منه نادل البار هامسًا ومشيرًا إلى الفتاة التي تقف بجوار أحد التماثيل التي يزدان بها مدخل الفندق وترمقه بارتباك.. التفت للناحية التي أشار إليها النادل.. رآها وهي تحاول إخفاء ارتباكها وحيرتها.. لوح لها بيده ودعاها إليه.. مشّت نحوه بخطواتٍ مرتجفة.. مد لها يده ليصافحها.. أما هي فقد مدتها في وجل.. رفع كفها

إلى شفتيه وطبع قبلةً مرحبةً عليه.. احمرت وجنتاها وابتسامةً مطمئنةً ترسم على شفتيها المكتنزتين..

لم تكن تعلم أن هناك من يراقبهما من خلف الواجهة الزجاجية المقابلة للبار والتي تمتد بطول البهو.. كان "دانيال" الذي يقف على الرصيف المواجه للشارع الضيق المطل عليه الفندق من تلك الناحية.. لمح "دانيال" غريمه وهو يقوم من على مقعد البار محتضناً يد "سارة" ومتوجهاً بها ناحية المصعد الخشبي.. اختزن ملامح وجهه في ذاكرته.. وحفظها عن ظهر قلب.. طلب منها "أنطونيو" للصعود معه إلى غرفته التي يقيم بها بضعة أيام بالفندق لإحضار حافظة نقوده - التي ربما نسيها في جيب سترته - قبل أن يغادرا الفندق للذهاب إلى سينما "راديو" بميدان محطة الرمل لمشاهدة الفيلم.. ترددت في البدء ولكنها خشيت أن تثير ملله

إن هي رفضت وتخسر فرصتها في تحقيق حلم حياتها في أن
تصبح ممثلة مشهورة..

-D'accord.. موافقة..

قالتها وهي تفتعل ابتسامةً لا مبالية..

فتح باب المصعد الحديدي الخارجي ثم دفع الباب الخشبي
الداخلي لتدخل هي أولاً ثم تبعها وأغلق البابين معاً ثم
ضغط زر الطابق الثالث.. ليصعد بها إلى غرفته.. توقف
المصعد أمام ردهة صغيرة من الرخام الأبيض.. فتح
"أنطونيو" بابيه ثم دعاها للخروج منه أولاً ليتقدمها بعد
ذلك إلى الردهة التي تؤدي إلى غرف ذلك الطابق والتي تقع
على يمين المصعد.. أشار إليها أن تتبعه.. تبعته بأقدامٍ
مرتعشة.. انحرف يميناً مرة أخرى إلى ردهة جانبية ثم توقف

أمام الغرفة ٣٠٩.. التي ما إن دخلها حتى بدأ يفتش عن حافظة نقوده.. كانت هي لا تزال تقف على عتبتها.. دعاها للدخول وهو يعبث في جيوب ستراته المعلقة في الخزانة الصغيرة المواجهة للشرفة الصغيرة المفتوحة والمطلّة على البحر.. استجابت لدعوته واتجهت مباشرة إلى الشرفة لتطالع ميدان سعد زغلول وأمواج البحر وهي تناوش الصخور المترامية على الشاطئ.. لم تشعر به وهو يقترب منها ليلف ذراعيه حول وسطها ويقبلها قبلّة دافئة خلف أذنها.. سرت بداخلها رعشة خفيفة.. استدارت نحوه فأصبحت شفيتها في مواجهة شفتيه.. جذبها برفقٍ إلى الداخل وهو يعتصر شفيتها.. أفلتها لبضع دقائق ليحكم إغلاق باب الغرفة.. ثم سألها بمكرٍ وهو يعاود ضمها إليها.. - وجدت حافظة النقود.. والفيلم سيبدأ عرضه بعد ساعة .. أترغبين في الذهاب الآن أم البقاء هنا قليلاً..

أرخت أهدابها وأخفضت رأسها وهي تتمتم بصوتٍ
خفيض..

- لم تعد بي رغبة في الذهاب إلى السينما اليوم..

أطلق ضحكة خفية ومنتشية لفوزه برهانه الذي كان قد
راهنه لنفسه.. أسدل ستائر الشرفة فخيمت عتمة طفيفة على
الغرفة.. حملها بين ذراعيه ووضعها برفقٍ على الفراش.. ثم
خلع قميصه واقترب منها.. مدت يدها لتحس صدره
العاري وصراعٌ يتأجج بداخلها ما بين رغبةٍ مشتعلةٍ تدعوها
للفناء في رجولته وبين خوفٍ دفينٍ يستصرخ عقلها
للرحيل.. دنا منها أكثر وضم وجهها بين يديه ليمطرها
بقبلات جامحة.. قبل أن يبدأ في فك أزرار تاييرها الأزرق
وهو يهمس لها..

- مسموح الحب.. مسموح جدًا يافاتنتي..

ليصمت صراخ عقلها تمامًا وتعلو بدلاً منه خفقات قلبها
شاهدةً على لحظة تعميدها امرأة في محراب جنونه..

(٢٧)

وحدهم الحالمون هم من يستطيعون أن يعبروا بوابات
الكون إلى عوالم أكثر توددًا إلى أرواحهم وانسجامًا مع
رغباتهم.. ووحده النوم هو ما يجمعه بطيفها.. ووحدها تلك
الليالي التي يأبى أن يغازل النوم جفونه هي التي يبיתה مشردًا
فوق أوراقه يكتبها نصًّا لا يعرف حرف ابتداء ولا نقطة
نهاية..

عانده النوم هذه الليلة كالليلة السابقة.. جلس يعاقر خمر
اللغة علَّها تسكره فيسقط غافياً على شواطئ الحلم.. ولكن
المفردات أيضًا راوغته وراودته عن استحضارها أنيسًا
يسامر..

كان يتيه غرورًا حين ينعته أصدقاؤه بالجنون.. أما الآن فهو
يتيه جنونًا بطيف امرأةٍ لا يدري إن كان لها وجودٌ على أرض
الواقع أم أنها خلقت فقط من أضغاث أحلامه..

فالأصعب من أن تهوى امرأةٌ ليس لها عنوان كما قال
الشاعر نزار قباني هو أن تهوى امرأةً ليس لها وجود سوى في
أحلامك.. ندت منه ضحكةً عالية شاركه فيها سكون الليل
وكلبه الوفي "نوار" الذي سار نحوه بخطي حثيثة ليدور
حوله عدة مرات ثم يستكين جالسًا على السجادة الصغيرة
التي تفصل بين مكتب خشبي وبين أريكة صغيرة في غرفة
نومه الواسعة..

تكاد صورتها التي رسمها "سليم" أن تنطق بما لا ينطقه
طيفها في أحلامه.. سرح بخياله في ملامحها.. أحس أنه يسافر

في تفاصيل ذلك الوجه إلى زمان بعيد.. لا يتذكره ولكنه يشعر أنه يسكن بعضًا منه.. لم يعد يضايقه ذلك الشعور كما كان سابقًا بل أصبح يستبقه قدر المستطاع كي يبقى هو قيد الكتابة..

حين سافر إلى الإسكندرية مرةً أخرى بحثًا عنها كان يحمل صورتها في جيب سترته الداخلي.. بعد أن غادر منزل "سليم" وهو يحمل تلك الصورة التي رسمها له اتجه إلى أحد استوديوهات الصور الفوتوغرافية.. طلب من العامل نسخًا صغيرة منها.. نقلها العامل إلى الحاسب الآلي بواسطة الماسح الضوئي ثم طبع له منها عدة صور صغيرة.. ومنذ ذلك الحين وصورتها لا تفارق جيوب ستراته ولا حافظة نقوده..

أقام في ذات الفندق وذات الغرفة ثلاث ليالٍ متصلة بعد
أن أودع "نوار" أحد العيادات الخاصة بالحيوانات الأليفة..
سافر وهو لا يدري من أين يبدأ رحلة البحث ولا كيف..
فقط كان يرغب في المحاولة حتى وإن كانت يائسة..

حائرٌ بين اختيارين كلاهما عبثي.. إما أن يبقى حبس
الغرفة ٣٠٩ ربما عاوده ذلك الوجه الذي أطل عليه من المرأة
في المرة الماضية علّه يبوح له بسرهِ وسرِ طيفها الذي دأب على
زيارة أحلامه منذ ذلك الحين.. أو أن يبقى مرتحلًا بين
الشوارع والميادين بحثًا عنها.. فليبحث عنها أولاً.. فلربما
يجدها ويجد أيضًا إجابةً منطقيةً لكل هذا الجنون الذي يخامر
عقله..

أخذ يسير في بعض الشوارع، يغمره شعور قوي بأنها تسير
بجواره.. بأنها بمكانٍ ما حوله.. إنها هنا أو ربما هناك، يتلفتُ
فلا يجد وجهها من بين الوجوه العابرة..

لم يتذمر من غيابها عن الأمكنة.. لم يئأس من مطاردته
لوهم وجودها.. ثمة ما ينبئه بأنها في مكان ما.. تنتظره..
ترمقه بعينيها العابتين الواهتين.. يسمع صوتها الأسر.. يشم
عطرها الباريسي العالق بثنايا ذاكرته.. إنها حاضرة فيه وفي
حنايا..

مرت به امرأةٌ شابة ربما عرفته.. استوقفته لتخبره عن
إعجابها بروايته الأولى التي كتبها منذ سنوات.. شكرها
بامتنانٍ شارد.. حاولت أن تستزيده من الحديث.. أجابها
بالصمت..

كانت مثيرة.. تنطق ملامحها بالغواية.. ولكنه ما عاد ذلك
العربيد في دنيا النساء.. لقد بات ناسكًا في محراب امرأةٍ
واحدة.. ليس لها اسم أو عنوان..

ودّعته تلك المثيرة بحسرةٍ جليةٍ في صوتها.. ومضت في
طريقها.. ليمضي هو الآخر في طريق لا يدري إن كان طريقه
أم طريق ذلك الطيف المستحوذ على كيانه..

ابتسم ساخرًا من نفسه.. الآن فقط فهم سر تلك الحيرة
التي كانت تنتابه بعد كل مرة يلتقي جسده بجسد امرأةٍ في
الفراش.. دائمًا ما كان يشعر أن هناك إحساسًا ينقصه حين
يصل إلى ذروة العلاقة وكأن رجلاً غيره هو من كان يؤدي
دوره فيها أو كأن امرأةً أخرى كان يجب أن تكون هي من
تنصهر بين ذراعيه.. الآن فهم أنه كان يبحث عنها في كل

النساء اللاتي صادفهن قبل أن يصادفه طيفها في أحلامه..
والآن أيضًا زادت حيرته، كيف هي وحدها من دون النساء
التي يمكن لها أن تكمل ما ينقصه ووجودها نفسه لا يزال
ينقصه..

انقضت أيامه في الإسكندرية ما بين طيفها الذي يبحث
عنه في الطرقات وبين ذلك الوجه المطل عليه من مرآة الغرفة
والذي يشبه ملامحه.. عاد إلى القاهرة بمزيدٍ من الحيرة
وبأمواجٍ عاتيةٍ من الجنون.. كان هناك عشقٌ غامضٌ يتنامى
يومًا بعد يومٍ بين أوردته كغاباتٍ كثيفةٍ من الحنين لامرأةٍ من
دخان..

(٢٨)

غادر "موردخاي" الإسكندرية ولم يعد أمام "موسى سمعان" سوى اللحاق به في أقرب فرصة سانحة للسفر.. أسر لزوجته "ليليان" بما يمكن أن يواجهوه من أخطارٍ في حال هزيمة بريطانيا.. حاولت طمأنته بتلك الأخبار التي يتداولها الجميع في الإسكندرية من الخسائر الفادحة التي تُكَبِّدُها بريطانيا للقوات الألمانية.. لم تكن تعلم شيئاً عن تورط زوجها في التجسس على الألمان لصالح الإنجليز.. ولم يكن هو بإمكانه أن يطلعها على سره.. ربما يتم قتله بيد الإنجليز لا الألمان إن أفشى أسرار تلك الجماعة السرية.. آثر الصمت ولكنه أصر على مغادرتهم للإسكندرية في أسرع وقت واللاحق بصديقه "موردخاي" في المغرب..

- علينا أن نرحل في غضون أسبوعٍ من الآن.. سأبدأ في ترتيب كل شيء لنرحل جميعًا من هنا.. عليك فقط إخبار سارة بالأمر حتى تستعد له..

سافر "موردخاي" دون أن يصطحب "دانيال" معه.. لم يكن بمقدوره إصطحابه قبل أن يطمئن على استقرار الأمور في المغرب بالنسبة إليه هو أولاً.. ولكنه وعده بأن يرتب له أمر السفر لاحقًا كما شدد عليه أن يكون حذرًا في تحركاته واتصالاته بأفراد المجموعة.. امثل "دانيال" لأوامر "ديفيد" موردخاي "جميعها.. عدا أنه لم يستطع مقاومة الاستمرار في مراقبة "أنطونيو جيانو" غريمه في قلب "سارة"..

دأب "دانيال" على متابعة لقاءات "سارة" و"أنطونيو" التي تكررت في "متروبول" من حينٍ لآخر.. كان قد عرف

من المعلومات التي جمعها عن "أنطونيو" من قبل بأنه من أصول إيطالية وأن عمله في مجال الإخراج السينمائي ما هو إلا ستار يخفي حقيقة أمره خلفه.. "أنطونيو جيانو" العميل الألماني الأكثر نشاطاً في التجسس على الإنجليز والأكثر كراهيةً لليهود.. كان يثرثر مع "عزرا" ذات يوم كعادتتهما حين كانا يلتقيان في المساء في مقفاهما المفضل.. حتى ذكر له اسم "أنطونيو جيانو" بصوتٍ خفيض كي لا يسمعه المحيطون بهما ثم تبعه بأسماء أخرى تقوم بعمليات استطلاعية لصالح قوات المحور.. مما جعل السيد "ديفيد موردخاي" يكلفه بمراقبتهم.. كان "دانيال" يعرف بأمر هذه المجموعة السرية من "عزرا" سابقاً ولكنه لم يفكر قط في الانضمام إليها حتى ذلك المساء..

هب "دانيال" واقفًا طالبًا من صديقه أن يحدد له موعدًا مع السيد "موردخاي" لأمرٍ عاجلٍ وسريٍ للغاية.. لينضم "دانيال" بعده إلى تلك الجماعة السرية دون أن يطلع أيًا من أفرادها بأمر العلاقة التي تجمع بين "سارة" و"أنطونيو".. والتي أثارت في نفسه مخاوف شتى على "سارة" ومنها في ذات الوقت.. ربما يكون هذا العميل الألماني قد أوقعها في شباكه لكي يعرف منها أخبار اليهود كونها ابنة "موسى سمعان".. أو أنها هي من تتجسس على بني جلدتها من أجل فتاها الإيطالي.. لا بد أن يصل إلى الحقيقة كاملة مهما كلفه الأمر كي يستطيع إنقاذها من براثن هذا الوغد إن كان يخدعها أو ينقذ اليهود من خيانتها إن كانت هي من تخدع الجميع..

(٢٩)

وللأمكنة أيضًا ذاكرة تبعث الماضي من مرقده وتوقظ فينا الحنين.. وبعض الماضي يتربص بنا كلصٍ محترف يسرق منا سكينه أيامنا دون أن نلاحظ أو نحتاط.. أماكن نشاتها وأخرى تلفظنا.. بعضها نعرفه وبعض منها يجحدنا.. وتظل هناك أمكنة تعيدنا إلى سيرتنا الأولى برغم تحولات الفصول والأزمنة..

تكره السفر ليلاً.. منذ زمانٍ قديمٍ مضى.. ينتابها خوفٌ خفي وشعورٌ مقبض.. لا يزال أمامها متسعًا من النهار لتذهب إلى القاهرة.. فمذ أن انتقلت للإقامة بالإسكندرية لم تعد إلى منزل أبيها بالقاهرة سوى بضع مراتٍ قليلة جدًا..

بدأت في تجهيز حقيبة سفرٍ صغيرة تكفي ليوم أو يومين ربما..
وأعدت لنفسها كوبًا من الشوكولاتة الساخنة تحتسيه وهي
ترتدي ملابسها استعدادًا للسفر..

مرت بسيارتها من أمام محل "باسيلي" للمجوهرات ألقت
نظرةً خاطفةً عليه قبل أن تستأنف طريقها للخروج من
الإسكندرية.. ذات يوم كانت لافتة باسم "سمعان" معلقة
على واجهة محل المجوهرات.. وذات يوم أيضًا تم انتزاعها
ليحل محلها اسم "باسيلي" وما بين هذا وذاك ظل المحل
مغلقًا لفترة كما أخبرها "يعقوب سليمان" حين زارته مع
أبيها وأمها وهي طفلة منذ سنواتٍ ليست بالبعيدة جدًا..
تحفظ عن ظهر قلب تفاصيل كل الزوايا بالمحل.. كان مكتب
"موسى سماعيل" يقع أعلاه منذ سنوات طويلة..

اصطحبها إليه "يوسف" أول مرة وهي طفلة في اليوم التالي لزيارتها لأبيه "يعقوب" وكانت المرة الثانية حين رافقته إليه ليقدمها إلى "نانسي" و"جورج" أبناء "باسيلي" الذي اشتراه بعد موت "موسى سمعان" ورحيل "ليليان" إلى المغرب.. كان "موسى سمعان" قد باع صورياً كل ممتلكاته بما فيها ذلك المحل إلى "جايكوب سولومون" حين قرر السفر إلى المغرب واللاحق بصديقه "ديفيد موردخاي" وقبل أن تختفي "سارة" ويختفي معها "دانيال".. ولكن القدر لم يمنحه فرصة الرحيل إلى المغرب واختار له أن يرحل عن الدنيا بأكملها بعد أن رحلت عن دنياه ابنته الوحيدة.. لم تقو "ليليان" زوجته على احتمال البقاء بالإسكندرية بعدما فقدت زوجها وابنتها.. فسافرت إلى المغرب.. وظل المحل باسم "جايكوب سولومون" حتى تمكن من بيعه إلى عائلة "باسيلي" وتحويل ثمنه كاملاً إلى "ليليان" في المغرب.. هكذا

قص "يعقوب" عليها وعلى أبايها حين قاموا بزيارته وبعد
أن قصت هي عليه تفاصيل لقاء "سارة سمعان" به في عيادته
قبل اختفائها بيومٍ وبضع ساعات..

أدارت راديو السيارة على إحدى محطات الأغاني التي
تبث الحديث منها.. ورفعت الصوت قليلاً علَّ صخب
الأغاني يطغى على صخب الماضي.. القريب منه والبعيد..
انتشلها من ذكرياتها صوتُ حنانٍ ماضي يصدح من راديو
السيارة عذباً حنوناً.. رفعت صوت الراديو وبدأت في الغناء
معها بصوتٍ مرتفع أيضاً تهرب به من رمضاء ذكرياتها إلى
نار واقعها المشتت..

بأعلى صوتها أكملت وكأنها تصرخ في الوجود بأكمله..

- صحيح.. من أنا؟

سؤال طالما تردد بداخلها.. لم تجد له إجابةً محددة.. هي "سارة موسى سمعان" .. أم هي "سارة رياض وهيب" .. أو شخص آخر لم تعرفه بعد.. وربما لا ترغب أيضًا في معرفته.. يكفيها ما أخبرتها به الحياة عنها..

وصلت إلى بوابة القاهرة.. حاولت أن تنفض عن رأسها كل هذه الأسئلة التي لا طائل منها قبل أن تتجه إلى مصر الجديدة حيث مدافن عائلة أمها "هدى" ..

صفت سيارتها أمام مدفن العائلة وهبطت منها لتقف أمام البوابة الحديدية الصغيرة المغلقة والتي تُفضي إلى ساحةٍ متوسطة منقسمة إلى قسمين قسم للرجال وآخر للنساء.. قرأت الفاتحة لأُمها ثم تبعتها بقراءتها مرة أخرى لباقي أفراد العائلة..

اشتأقت إلى ذلك الوجه الحنون والحضن الدافئ.. كانت في أول سنة لها بالجامعة عندما رحلت أمها عن الحياة بغتة.. فقدت "سارة" برحيلها الأم والصديقة الداعمة لها في تلك الأوقات التي كانت تداهمها فيها الذكريات كعاصفة عاتية تعكر صفو أيامها..

- رأيت أنطونيو مرة ثانية يا أمي.. متأكدة من أن هو....
إحساسي وملاحمه يؤكدان لي هذا.. كنت أتمنى لو أنكِ معي.. من المؤكد أنك كنت ستساعديني برأيك وتشيرين عليّ ماذا أفعل..

رحلت عن ذلك المكان الذي يوارى تحت ثراه الراحلين من عائلتها.. وذكريات سنوات عمرها التي عاشتها في دفء وجود أمها "هدى" تختلط بذكريات سحيقة عن "ليليان"..

كانت الساعة جاوزت الثالثة عصرًا بقليل.. أحست بجوع يدغدغ معدتها.. ترددت قليلًا أين تتناول طعام الغذاء قبل أن تتوجه إلى منزل والديها بالزمالك؟.. قررت التوجه إلى المركز التجاري سيتي ستارز القريب من هناك لتتناول البيتزا في مطعم "بيتزا ألفورنو" في الطابق الأرضي منه.. يبدو أن عقلي اللاواعي أيضًا يفكر فيه بشدة.. وإلا ما كنت انتقيت مطعمًا إيطاليًا على وجه الخصوص.. حادثت نفسها بتعجب يشوبه بعض اللوم..

سألتها "نانسي" ذات مرة..

- لماذا ترغبن في مقابله من الأساس؟

- لكي أعرف منه إجابة سؤال مهم بالنسبة لي.. ماذا كان يعني عندما قال قبل مقتلي مباشرة بأنه يعرف.. ما الذي كان يعرفه؟

- وما جدوى معرفة الإجابة الآن.. الموضوع انتهى منذ زمن بعيد جداً..

- يهمني أن أعرف إن كان أحبني فعلاً.. أقصد إن كان يحبها فعلاً أم كان يخدعها..

حدقت فيها "نانسي" بنظرة مأكرة وهي تسألها..

- هل ما زلت تحبنيه أم ماذا؟..

ارتبكت "سارة" من ذلك السؤال المباغت وراوغتها في الإجابة عليه كما هي تراوغ نفسها الآن لتهرب من مواجهة حقيقة دأبت على إنكارها والهروب منها..

كانت الساعة قد قاربت الثامنة مساءً حين وصلت محطتها الأخيرة.. الزمالك.. سلكت شارع ٢٦ يوليو لتصل منه إلى شارع شجرة الدر حيث يقع منزل والديها.. كان الشارع كعادته يعاني من تكديسٍ مروريٍ أرغم جميع السيارات على السير ببطءٍ شديد.. كانت "دينا" في ذلك الوقت أيضًا قد غادرت لتوها قاعة الجاليري الذي يعرض به "سليم" لوحاته واتجهت بسيارتها من أحد الشوارع الجانبية إلى شارع ٢٦ يوليو متوجهة إلى المهندسين حيث لمحت هذا الوجه الذي اختزنته في ذاكرتها حين كانت تسامر "سليم" وهو يرسمه..

إنها هي بلا شك.. ندت عنها شهقة خفيضة من هول
المفاجأة.. جعلها تتبع تلك السيارة التي تقل صاحبة هذا
الوجه المألوف لها لتتأكد من أن ما تراه حقيقة لا وهمًا..

(٣٠)

كان آخر ما تتمنى سماعه في ذلك اليوم هو ما أبلغته إياه
 "ليليان" .. بكت كما لم تبك من قبل ..

Je n'ai pas envie de voyager mama- .. لا أرغبُ بالسفر ..
 ولن أسافر ماما .. لن أغادر الإسكندرية .. لا لن يحدث
 هذا أبدًا ..

ظلت ترددها وهي تبكي هلعًا من هول الخبر الذي ألقته
 أمها عليها كصاعقة ..

لم تكن "ليليان نصير" هي الأخرى راغبة في الرحيل عن
 الإسكندرية ولكنها أيضًا لم تستطع أن تجعل زوجها يعدل

عن قراره بعدما لمستته من إصراره الشديد على تنفيذه.. كان قد بدأ بالفعل في تجهيز عقود بيع محال الذهب التي يمتلكها.. لم يكن قد وقع اختياره بعد على من سيأتمنه عليها حين بيعها له فعلياً وتحويل ثمنها له إلى المغرب فيما بعد..

هرعت "سارة" إلى غرفتها وهي لا تزال تنتحب.. ارتدت ملابسها في عجلة وأسرعت في الخروج خلسة من المنزل للبحث عن "أنطونيو".. ذهبت أولاً إلى البناية التي يقطن بها في حي الإبراهيمية.. أبلغها بواب العمارة بأنه متغيب منذ ثلاثة أيام.. كان هذا دأبه من حينٍ إلى آخر.. يتغيب عن بيته ويقيم في غرفته الأثيرة في "متروبول"..

أشارت إلى سيارة أجرة وطلبت من سائقها التوجه إلى محطة الرمل.. وصلت إلى الفندق.. سألت موظف

الاستقبال عنه.. فأجابها بعدم تواجدہ.. غادرت "متروبول"
والخوف ينهشها.. فكرت أن تلجأ لصديقتها "كلير"..
وتحكي لها عن علاقتها بأنطونيو وعن كل شيء.. ولكنها
عدلت عن فكرتها.. فكلير لن تحتفظ بسرها.. ستفشيہ حتمًا
إلى "دانيال".. وسينفضح أمرها أمام عائلتها وأمام
"أنطونيو" أيضًا.. وستفقدہ إلى الأبد إن اكتشف حقيقة
هويتها.. لا لن تخبر "كلير".. لن تجازف بخسارة حبیبها من
أجل أي شيء في هذا العالم.. لن توضحي به الآن بعد أن
ضحت بحلمها في الشهرة والتمثيل من أجله هو.. وبعد أن
تخلت بين ذراعيه عن الهدف الذي أرادت أن يساعدها في
الوصول إليه حين اقتربت من دنياه.. فنسيت هويتها
ويهوديتها وعائلتها وكل ما يتعلق بحياتها من تفاصيل
خارجة عن نطاق عالمه.. منحت له من جسدها ما لم تمنحه

لرجلٍ من قبل .. ووهبته من عشقها ما لم يهبه قلبها لأحدٍ من
قبل ..

ظلت تفكر وهي تسير على غير هدي في شارع سعد
زغلول فيمن يمكنه مساعدتها حتى عودة "أنطونيو" من
القاهرة.. قفز "جايكوب" إلى ذهنها.. نعم يمكنها الوثوق
به وإخباره بكل شيء كي يساعدها.. فجايكوب ليس أهوجاً
كدانيال كما أنه ليس ثرثاراً ككلير..

هاتفته بالمنزل فأخبرتها زوجته "راشيل" بأنه ذهب إلى
العيادة مبكراً على غير عادته.. فهاتفته بالعيادة.. أجاها هو
فلم يكن موعد عمل "إلينا" قد حان بعد.. أخبرته بصوتٍ
متحشرج من البكاء أنها بحاجة ماسة إلى لقائه.. لم تمهله
الفرصة كي يحدد لها موعداً مناسباً له..

- أنا في الطريق إلى عيادتكَ الآن جايكوب.. أرجوك لا تغادر قبل مجيئي.. الأمر بالفعل خطير..

لن يقحم نفسه في أي أمرٍ من الأمور التي عرضها عليه "موسى سمعان" .. سيبلغ "سارة" برفضه التعاون مع تلك الجماعة السرية التي يقودها كل من "موردخاي" و"سمعان" .. لا لن يقع في هذا الفخ .. فلربما يكون "موسى سمعان" قد أرسل له ابنته ليختبر ما إذا كان سيُفشي أمرهم أمامها أم لا .. من يدرية .. عليه أن يكون حذرًا .. يجب أن يبلغ رفضه لموسى سمعان نفسه الآن .. ويجب أن يتم ذلك قبل وصولها .. هاتف "سمعان" سريعًا ليلقي إليه ببضع كلماتٍ مقتضبة وعاجلة وكأنه يتقيأ وجبةً طعام فاسدة كادت أن تتسبب في تسممه ..

- أعتذر سيد سمعان فليس بإمكانني تلبية طلبك..

لم يكن "موسى سمعان" في حالة مزاجية تمكنه من مجادلة "جايكوب" أو محاولة سبر أغوار ذلك الرفض المبهم والسريع.. فآثر تلقي رفضه بصمتٍ تام.. تنهد "جايكوب" بارتياح بعد أن أزاح هذا العبء الثقيل من على كاهله.. وجلس باسترخاء على مقعده خلف مكتبه ينتظر قدوم زائرته..

(٣١)

وكما تسرق منّا الحياة بعض من شاركونا أجمل أيامنا.. يهبنا
القدر بغير توقع من يعيدنا إلى ماضينا الذي كنا قد نسيناه..
ومن رحم الحزن يولدُ فرحٌ فتي يمد لنا يدًا حانية تعبر بنا
الطريق إلى الضفة الأخرى من نهر الذكريات الجارف لنرحل
بعد أن نروي ظمأنا إلى الذين سبقونا في الرحيل إلى ذلك
الجانب المنير من النهر..

أعادته تلك الطفلة إلى زمن ما قبل الحزن وما قبل
الرحيل.. تذكّر حياته التي كانت.. عائلته التي رحل أفرادها
حزنًا على ابنهم المفقود.. لم يعلم مصيره أيّ منهم.. حتى
زارته تلك الطفلة لتعيده إلى تلك الأيام التي عمَدَ إلى نسيانها

كي يقوى على المضي في رحلة لم يختَر بدايتها ولا يعلم متى
تكون نهايتها..

"دانيال" ذلك الفتى المفعمٌ بالنشاط والجرأة.. المندفعُ
دائماً.. قاده اندفاعه وتهوره إلى أن يلقي حتفه.. ذلك المصير
الذي كان يُخشاه: جايكوب "دائماً والذي جعله يؤثر الابتعاد
عن كل ماله علاقة بالحرب والسياسة.. اختار العيش في
عزلة وسلام..

كان قد أهال تراب النسيان على ذكريات الماضي.. حلوها
ومرّها.. أفقد أيام عمره الذاكرة بعدما تغير كل شيء من
حوله.. الناس.. والمدينة.. والوجوه.. تقاعد عن العمل
واعتزل الحياة بعد أن نهش المرض جسده.. أراد الرحيل بلا
ألم ولا فرح.. بلا حاضرٍ يعرفه ولا ماضٍ يذكره.. إلى أن

زارته "سارة" تلك الطفلة.. لتحيي بداخله مرة أخرى ما
واراه الثرى منذ زمنٍ بعيد..

أعادته ذكرى "دانيال" إلى أوقات الفقد التي تجرّعها
وحيداً وهو يتشبث بآخر أمل تبقى له في هذه المدينة.. ابنه
"يوسف" الذي جاء يشبهه في كل شيء حتى في عشقه
للإسكندرية.. كان ابنه هو دعامته التي يركز عليها كلما
عصفت به رياح الذكريات المشخنة بالجراح..

لم يتحمل أبواه فقدان "دانيال".. فنال منهما الحزن ما لم ينله
المرض.. ورحلا عن الحياة دون أن يعرفا مصير ابنهما
الأصغر.. البعض أشاع أنه هرب مع "سارة" ليتزوجا بعيداً
عن صلف أبيها.. والبعض الآخر أشاع أنه سافر إلى لندن كما
كان يحلم ضارباً بتعنت أبيه عرض كل حوائط المدينة..

"جايكوب" وحده من كان يعلم بعضًا من الحقيقة.. ولكنه دفنها في أعماقه كما كان يدفن كل أوجاع حياته حتى لا يذيق عائلته مزيدًا من الوجع.. وها هي تلك الطفلة تأتيه بعد سنوات طويلة لتخبره ببعض الآخر الذي كان يجھله..

بكى يومها بعدما كانت عيناه قد نسيت البكاء لزمانٍ طويل.. أعادته الطفلة للحياة لكي يرحل عنها رحلته الأخيرة ولكن بعد أن سامح الماضي بكل آلامه لتهيأ روحه لاستقبال حياةٍ جديدة.. جاءت "سارة" مرة ثانية لتلقي عليه عبء الحقيقة كما ألقتها عليه منذ زمنٍ بعيد.. دائماً ما تضعه هذه الصغيرة في قلب دائرة من اللهب إن ظل بداخلها مات اختناقاً من ثقلها وإن حاول الخروج منها لقي حتفه احتراقاً من نيرانها..

في لحظةٍ مباغتةٍ استيقظ "جاكوب" في داخله ليتوارى
"يعقوب" خلف ظل الماضي البعيد.. وما بين موت وحياة
أوصى ابنه "يوسف" أن يُبقي على أي خيط يربطه بهذه
الفتاة.. ففي داخلها يكمن بعضٌ ممن رحلوا.. وظلٌ بعض
العائدين إلى الحياة..

أبقى "يوسف" على وعده لأبيه وظل على صلة بأسرة
"سارة".. يهتم بأمر تلك الطفلة ويتابع أخبارها باستمرار..
حتى أصبح وجودها فيما بعد يعوضه غياب ابنه وأصبح
وجوده بالنسبة لها يبعث الحياة في ذلك الماضي الذي لم يمت
أبدًا في أعماق روحها..

(٣٢)

حين نجد أنفسنا بين اختيارين أحلاهما مر علينا ألا نلوم
 القدر لأننا أسأنا التقدير في البداية.. علينا أن نواجه أنفسنا
 بالحقيقة المجردة بأن كل ما يحدث من نتائج إنما هو نتيجة
 اختياراتنا الحرة.. إننا دائماً نلقي باللوم على حظوظنا العائرة
 ونغفل أننا نحن من نصنع هذه الحظوظ بأيدينا وبرغبتنا
 المطلقة..

حين وصلت "سارة" إلى عيادة "جاكوب" كانت في
 حالة أشبه بمن عادت لتوها من الموت.. أو بمن هو على
 وشك أن يقابله.. عيناها غائرتان متورمتان من بكاء لا
 ينقطع.. وجهها شاحبٌ بلون العدم.. أنفاسها متحشجةٌ

كأنها تصارع وحشًا كاسرًا.. ترتجف بشدة كعصفور يقف وحيدًا في مهب عاصفةٍ هوجاء.. فزع لمنظرها.. أسندها على ذراعه حتى أوصلها لغرفة الكشف وأجلسها على المقعد الخاص بتنظيف الأسنان بعد أن أخفض ظهره إلى الأسفل لتستلقي عليه.. ثم هرع يحضر لها كوبًا من الماء لتهدأ أولاً قبل أن تبدأ في قص حكايتها عليه..

لم تدر من أين تبدأ الحكاية التي بدأت بحلم وردي وانتهت بكابوسٍ مريع.. كانت تعلم أنها هي من ألقت نفسها طواعية في هذا الجب العميق.. وكان عليها أن تواجه الغرق الآن لربما وجدت بصيصًا من ضوء في نهاية هذا النفق المظلم تسترشد به على النجاة.. انتظر "جايكوب" صامتًا حتى كفت عن النحيب وإن كانت أمطار عينيها لم تكف عن الهطول.. حكّت له كل شيء.. روت له التفاصيل التي لم

يخطر ببالها يوماً أنها ستروىها لأحد والتي كانت تذوب خجلاً
من استعادتها حين كانت تخلو بنفسها بعد كل مرة تلتقي فيها
"أنطونيو" في الغرفة ٣٠٩..

كان ينصت إليها بثبات صنم يقف على رأسه سرب من
الطيور.. حاول أن يفتش في مفرداته عما يعقب به على ما
سمعه منها ولكن صمتاً ثقیلاً أجمه.. انفجرت في البكاء مرة
أخرى.. فأفاق من صدمته على صوت نشيجها..

- على الرغم من أن كل الاختيارات قد تبدو غير قابلة
للتحقيق يا عزيزتي ولكن لا بد أن تختاري إحداها فلا بد
عن مواجهة الجميع بكل شيء..

- كيف سأواجه أبي يا جايكوب بمصيبيتي .. بل كيف
سأواجه أنطونيو بهويتي .. إنني في مأزق حقيقي .. لن
ينقذني منه سوى الموت ..

أجابها بفرع حقيقي ..

- لا .. لا .. الأخطاء التي تقع بها لا يجب علينا إصلاحها
بأخطاء أكبر لا يمكننا تدراكها .. الانتحار خطيئة كبرى لن
يغفرها لك الرب ..

- الموت أهون من الرحيل عن الإسكندرية يا جايكوب ..
إما الموت أو الحياة مع أنطونيو ..

- إذن دعيني أقابل أنطونيو وأشرح له الأمر كاملاً علّه
يتفهمه ..

- إنه يكره اليهود يا جايكوب.. يكرههم إلى الحد الذي يجعله يشيد بما فعله هتلر معهم..

انخرطت مجددًا في بكاءٍ مرير.. أما "جايكوب" فسقط في دوامات من الحيرة والغضب ممزوجة بالعجز أمام مصيبة الفتاة.. سادت بينهما فترة من الصمت الحذر.. حتى استأنف هو حديثهما المشوب بالخيبة..

- ألدريك صورة فوتوغرافية لأنطونيو من تلك الصور التي التقطها لكما؟ فقط أحتاج لمعرفة من يكون ربما واتتني فكرة ما أستطيع بها إنقاذ مايمكن إنقاذه منك يا سارة..

عبثت قليلًا بحقيبة يدها ثم أخرجت منها عدة صور تجمعها بأنطونيو في أماكن مختلفة.. التقط جايكوب إحداها وظل يحدق بها ليختزن ملامح هذا الإيطالي في ذاكرته.. ثم

وضعتها على طاولة صغيرة ملاصقة للمقعد الذي كانت تجلس هي عليه.. ووعدتها بأن يبذل كل ما باستطاعته ليخرجها من هذه المتاهة التي تبتلعها.. ووعدته ألا تفكر في أمر الانتحار مرة ثانية.. غادرت عيادته وهي لا تدري أ تعود إلى منزل أسرتها وتستسلم لذلك المصير المجهول في السفر إلى المغرب.. أم تعود إلى فندق "متروبول" لتنتظر عودة "أنطونيو" من القاهرة.. كانت الأفكار تعصف بذهنها حتى أنها لم تنتبه إلى أنها نسيت تلك الصورة التي تجمعها بأنطونيو في بهو الفندق يوم أن كانت ترتدي تايرها الأزرق الداكن..

(٣٣)

القدر وحده هو من يحدد متى يبدأ لعبته ومتى ينهيها..
ليس بإمكاننا أن نخرج عن النص أو نبذل الدور المحدد لنا
بآخر.. ليس بوسعنا أن نجعل من أنفسنا أبطالاً في الوقت
الذي نؤدي فيه دوراً هامشياً.. كما أنه ليس باستطاعتنا أيضاً
أن نسدل الستار قبل نهاية المسرحية.. القدر وحده هو من
يمنح للبعض دور البطولة ويقضي البعض عن خشبة
المسرح.. كل ما يجب علينا فعله هو أن نتقن أدوارنا وأن
نؤديها كما هو مرسومٌ لنا ربما يرضى عنا القدر ذات حياة
لنلتقي وجهاً بوجه بأمنياتنا المؤجلة..

عاد "عمر" من رحلته بفيض من حيرة وأسئلة ليس
لإجاباتها مرفأً أو منارة يهتدي بها.. الجنون هو آخر ما تبقى
من ليالي الحلم التي أرهقته.. والطبيب النفسي بات هو
الإجابة الوحيدة الملائمة لجميع تساؤلاته المضنية..

بحث في أدراج مكتبه عن تلك البطاقة التي أعطتها له
"دينا" لذلك الطبيب.. لم يجدها.. بحث في جيوب ستراته
كلها ليس لها وجود.. قلب منزله رأسًا على عقب علّه يعثر
عليها ولكن لا أثر لها على الإطلاق.. ازداد توجسًا وقلقًا..
أيمكن أن يكون هذا الطبيب هو أيضًا من نسج خياله..
أحس بحاجة ماسة إلى حمام ماءٍ بارد ربما ساعده على أن يفيق
من حالة الهذيان التي تسيطر على تفكيره..

انتهى من حمامه.. فكر أن يهاتف "دينا" ليسألها عن الطبيب ولكنه فضل أن يذهب إلى منزل "سليم" ليتحدث معها سوياً في الأمر..

ركب سيارته المرسيدس ذات الدفع الرباعي سوداء اللون وقبل أن ينطلق بها إلى وجهته لمح تلك البطاقة تقبع في انتظاره أسفل المقعد المجاور لمقعده.. تنهد بارتياح.. تذكر أنه وضعها على مقعد السيارة في ذلك اليوم الذي أعطته إياها "دينا" وهو ذات اليوم الذي تسلم فيه الصورة من "سليم".. ربما وقعت أسفل المقعد منذ ذلك الحين ولم ينتبه.. التقطها ليقرأ عنوان العيادة المدون بها ورقم هاتفها.. اتصل من فوره بالرقم وطلب من ممرض العيادة أن يحجز له موعداً عاجلاً اليوم لا غد..

انطلق إلى شارع الثورة بمصر الجديدة في رحلة بحثٍ جديدة عن إجابات لأسئلةٍ قديمة ما زالت معلقةً بأستار الزمن.. لم يكن يعلم أنه سيعود محملاً بمزيد من أسئلة ثكلى وروح مثقلة بالهموم..

"تتأبط ذراعي بزهو كعادتها.. ترتدي فستاناً بلون النبيند ينساب شعرها البني على كتفيها كشلال عطرٍ يسكرني بغير خمر.. عيناها ذلك المساء كانتا تبوحان بسرهما.. غارقة هي في الحب حتى أذنيها.. وأنا ملاحها وبرها.. نسير في شارع سعد زغلول متعانقين.. تدندن بذلك اللحن الانجليزي.. أ همس في أذنها بأنها ستكون دائماً في مأمن ما دامت معي.. نصل إلى مطعم سائتا لوتشيا أتقدمها خطوة واحدة أَدفع الباب الصغير الخشبي وأدعوها للدخول بحركة مسرحية.. وكأنني أمنحها تذكرة لدخول الجنة - جنتي أنا - يبدو المطعم خالياً

هذا المساء.. مما يزيدني انتشاءً.. يحينا النادل بإيماءةٍ من رأسه
 وابتسامةٍ مرحبة.. ترحب بنا الفتاة التي تجلس أمام البيانو
 بنغماتها التي تعزفها للمقطوعة الكلاسيكية الحاملة سوناتا
 ضوء القمر للموسيقار النمساوي لودفيج فان بيتهوفن..
 أمسك بيد فتاتي لأصعد بها إلى الطابق الثاني.. لون الستائر
 والمقاعد اللازوردي يتناغم مع لون النوافذ والسلام
 الخشبية.. كل ما في هذا المساء يثير شهيتي لأن أذيقها بين
 ذراعي كما حدث في تلك الليلة في فندق متروبول.. هي لا
 تزال تدندن بذات اللحن (أنا في حالة مزاجية للحب) I'm
 in the mood for love.. يثيرني عطرها الباريسي.. أغمض
 عيني لكي أتذوقه بعين خيالي.. يتسلل صوتها الهامس إلى
 أعصابي.. يمضي المساء بنا والعشق ثالثنا...."

أدار د. "جلال توفيق" جهاز التسجيل قبل جلسة التنويم المغناطيسي ليتمكن من تسجيل كل ما سيقوله "عمر" أثناءها والتي قرر أن يخضع لها بعد أن سجل بياناته في ملف خاص به وسأله عدة أسئلة معتادة للتعرف إليه وإلى شكواه.. ولكنه لم يستطع من خلالها تحديد حالته أو تشخيصها على وجه الدقة واليقين.. فلجأ إلى التنويم المغناطيسي ليفتش في خبايا ذاكرة مريضه عن أية تفاصيل تتعلق بطفولته قد تكون هي السبب في تلك الهلاوس التي انتابته مؤخراً.. ولكن "عمر" لم يرو أي شيء عن طفولته.. بل حكى عن ذكريات "أنطونيو جيانو" مع "سارة" حين اصطحبها إلى مطعم "سانتا لوتشيا" للعشاء في ذلك المساء..

أنهى د. "جلال توفيق" الجلسة بعدما أفاق "عمر" بعد أن شعر أنه أمام حالة معقدة تحتاج إلى عدة جلسات أخرى

حتى يتمكن من تحديد طبيعة مرضها.. دون في الملف الخاص بعمر بعض الملاحظات قبل أن يصف له بعض العقاقير في روثة طبية.. ثم حدد له موعد جلسة ثانية بعد أسبوع على أن يلتزم بتناول العقاقير التي وصفها له في مواعيدها المحددة..

شكره "عمر" وهم بالانصراف ولكن "جلال توفيق" استوقفه ليسأله سؤالاً مهماً كان قد دونه باللون الأحمر في ورقة صغيرة ولكنه كاد أن ينساه من فرط دهشته مما حكاه مريضه أثناء الجلسة..

- عمر متى كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى مطعم سانتا لوتشيا في الإسكندرية؟ ربما ساعدنا ذلك في معرفة أصل المشكلة أو سببها على الأقل؟

- أنا لم أذهب إليه قط من قبل يا دكتور.. ولكن لماذا
تسأل؟..

حذق به "جلال توفيق" مرتاباً.. وهز رأسه وكأنه ينفض
غبار زهولٍ مفاجيءٍ داهمه..

- ولكنك وصفت لي المكان بدقة غريبة وكأنك تحفظه عن
ظهر قلب.. ولأني أتناول فيه عشاءي كثيرًا حين أكون
بالإسكندرية فأنا أعلم علم اليقين أن كل كلمة أنت قلتها
عنه صحيحة..

ثم أعاد التسجيل الصوتي على "عمر" ليسمعه ما حكاه في
جلسته لتوه.. مما جعل عمر يغادر العيادة وهو على شفا
جرفٍ هارٍ من الجنون.. سار مترجلاً نحو سيارته.. أعاد
تشغيل هاتفه المحمول الذي كان قد أغلقه لعدة أيام منذ أن

سافر إلى الإسكندرية وأبقاه مغلقاً حتى انتهاء جلسته مع الطبيب.. ليجد خمس مكالمات فائتة من "دينا" ورسالة نصية وحيدة..

"أين أنت يا عمر.. لقد رأيته.. رأيت صاحبة الصورة التي طلبت من سليم أن يرسمها لك.. اتصل بي ضروري"

أعاد قراءة الرسالة مرات ومرات ليتأكد من محتواها.. ثم اتصل بها على الفور ليتيقن من أنه لا يهذي.. أجابته بصيحة طفولية مرحة غير مصدقة لتلك الصدفة التي قادت إليها..

(٣٤)

الحماقات التي نقترفها طواعيةً تدفعنا نحو الهاوية.. وما من حماقة يرتكبها المرء أكبر من محاولة إيهاام نفسه بأنه لم يكن سوى ضحية أقدارٍ عابثة..

ظل "جايكوب" يلوم نفسه.. لماذا لم يصطحبها إلى منزلها حتى يتأكد من أنها عادت إليه سالمة.. ربما استطاع أن يشرح الأمر بروية لموسى سمعان.. ربما أنقذها من مصيرٍ مجهولٍ يتربص بها.. كان يلومها في أعماق نفسه بل يلعنها لما اقترفته من خطايا ولكنه في الوقت ذاته كان يلوم نفسه لتخليه عنها بعد أن لجأت له.. فكر في أن يذهب مباشرة إلى "موسى سمعان" ليحدثه في شأنها إلا أنه عدل عن الفكرة فلن يقبل

مقابلته بعد أن رفض التعاون معه ومع جماعته السرية.. إذن فليطلب من "دانيال" المساعدة في الأمر فهو لا يعلم بعد بأنه قد عرف بأمر عضويته في هذه الجماعة السرية.. فلا بأس إذن من أن يقص عليه ماروته له "سارة" وكأنه يستشير في الأمر.. وبالتأكيد سيتولى "دانيال" مهمة إيصال الموضوع برمته إلى "موسى سمعان".. اهتدى إلى هذه الخطة بعد تفكير طويل.. سيلتقي بأخيه بعد انتهاء موعد عيادته.. ويطلعه على المشكلة التي تواجهها.. مازال أمامهم الوقت الكافي لإقناع "موسى سمعان" بعدم الرحيل أو مساعدة "سارة" في التخلص من ورطتها بطريقة ما..

كانت هي على مشارف حي زيزينيا حين قررت تغيير وجهتها إلى محطة الرمل.. طلبت من سائق سيارة الأجرة التي تستقلها أن يذهب بها إلى هناك.. هبطت من السيارة بعد

أن نقدته حسابه.. اطمأنت إلى أن معها من المال ما يكفي لإقامتها بذات الغرفة التي شهدت جميع الحماقات التي ارتكبتها بدافع الحلم والحب.. وصلت الفندق وما إن صعدت درجات السلم المؤدي إلى مكتب الاستقبال للتأكد من خلو الغرفة ٣٠٩ وحجزها لمدة ليلة أو ليلتين.. حتى لمحته جالساً على ذات المقعد أمام البار الصغير في الركن القصي من بهو الفندق.. كان يحتسي مشروبه المفضل من النبيذ الأحمر المعتق.. حاولت أن تحث خطاها حيث يجلس وهي تنادي بإسمه بصوت واهن.. ولكنها سقطت فجأة مغشياً عليها من الإعياء قبل أن تصل إلى البار حيث يجلس هو.. التفت تجاه صوت ارتطام جسدها بالأرض.. أسرع إليها مع كل من أسرعوا لإسعافها.. حملها بين ذراعيه ليصعد بها إلى تلك الغرفة الشاهدة على فصول حكاية كتبها سويًا بمداد من الكذب المتقن والعشق المجنون معاً..

- سارة.. حببتي.. ما بك؟.. ما هذا الشحوب الذي
يعتريك؟..

ظل يرددّها بقلقٍ بالغ عليها وهو يربت على خدّها محاولاً
إفافتها..

أمسك بمعصمها ليطمئن أن نبضها لا يزال يتشبث
بالحياة.. رفع سماعة هاتف الغرفة وطلب من موظف
الاستقبال أن يحضر له طبيباً على وجه السرعة.. ظل جالساً
بجوارها يضع رأسها على صدره ويحتضنها بقوة وكأنه يخاف
من اختطاف الموت لها.. تبقى حقيقة مشاعرنا مبهمة حتى
يضعنا القدر في مواجهة مع الفراق.. تلك اللحظة المعلقة بين
البقاء والرحيل هي التي تجعلنا ندرك كُنه المشاعر التي تجمعنا
بأحدهم..

- أحبك يا سارة.. نعم أحبك.. ربما كانت هذه المرة الأولى التي أعترف لك بها ولكنها حقيقة مشاعري التي لا مهرب منها..

لا تزال هي غائبة عن الوعي ولا يزال هو يخبئها بداخل صدره خشية فقدانها.. طرقات أحد العاملين بالفندق على باب الغرفة والذي كان الطبيب برفقته هي وحدها التي أرغمته على إفلاتها من بين يديه.. وضع رأسها برفق على الوسادة واتجه ناحية باب الغرفة ليدخل الطبيب إليها.. انتهى الطبيب من توقيع الكشف وأخبره بنتيجته وهو يكتب أسماء بعض الأدوية اللازمة لها على الروشتة.. ويلقي عليه بعض التعليمات التي يجب عليها أن تحرص على اتباعها والالتزام بها حتى تستعيد عافيتها من جديد..

غادر الطبيب الغرفة ولكن الوجوم أبى أن يغادر
"أنطونيو" وهو يستعيد كل ما قاله الطبيب.. نظر إلى رويشتة
الدواء باهتمام ثم غادر الغرفة بهدوء ليبتاعه لها..

كانت هي لا تزال نائمة بعد أن حقنها الطبيب بمهدئ
لتنال أكبر قسط من الراحة..

(٣٥)

الحياة دائماً تدفعنا إلى أن نعيد اكتشاف أنفسنا مرات
ومرات حتى أن الدهشة تصيبنا في أحيان كثيرة وكأننا نقابل
ذلك الشخص الذي يسكننا لأول مرة منذ أن وجدنا في هذه
الحياة..

لم تجد ما تبرر به سؤالها عنه في دار النشر سوى أنها صحفية
ناشئة ترغب في إجراء حوار صحفي معه لإحدى المجلات
الأجنبية عن تحوله من السياسة للأدب.. اعتذرت لها الفتاة
التي تعمل بالسكروتارية بأنها لا تستطيع إعطائها رقم هاتفه
المحمول دون الرجوع إليه أولاً.. حاولت الاتصال به ولكن

الهاتف كان مغلقاً أو ربما خارج نطاق الخدمة.. غادرت "سارة" دار النشر يرافقتها الفشل في الوصول إليه..

تذكرت اقتراح "نانسي" لها الذي رفضته من قبل بأن ترسل له رسالة من خلال فيسبوك.. لا.. لن تفعل.. فقد لا يهتم بالرد عليها.. وربما ظنها فتاة مراهرة تحاول لفت انتباه كاتب مثله.. ولن تقدم له نفسها أيضاً عبر رسالة باعتبارها حبيبة سابقة لا يتذكرها الآن ولا يعرف عنها شيئاً على الإطلاق.. قررت الاكتفاء من صخب القاهرة وإخفاقاتها والعودة مرة أخرى إلى الإسكندرية قبل أن يخيم الليل عليها.. انطلقت بسيارتها وانطلقت في داخل رأسها طلقات الذكريات المصوبة على حياتها كقناص محترف لا يخطئ هدفه أبداً..

عاد بها أبواها إلى القاهرة يصطحبان معها آلاف الأسئلة المبهمة بعد أن أكد لهما "يعقوب سليمان" صدق كل كلمة روتها طفلتها عن "سارة موسى سمعان" .. وعن "دانيال" وعن لقاءها به في عيادته ذات ماضٍ بعيد..

في ذلك اليوم طلب "يعقوب" من ابنه "يوسف" أن يأتيه بصندوق خشبي صغير كان يحتفظ فيه بتلك الصورة التي نسيته "سارة" لديه في عيادته.. وصور أخرى لأفراد عائلته.. استطاعت الطفلة أن تتعرف على جميع من في الصورة.. لم يعد للشك مكانٌ في حكايتها..

كان أول ما قام به "رياض وهيب" عند عودتهم من تلك الرحلة إلى الماضي أن يبدأ رحلته هو في البحث عن تفسير للأمر.. جلس ساعات أمام حاسبه الآلي يبحث على الشبكة

العنكبوتية.. استخدم كلمات مختلفة للبحث علّ إحداها
يجدي نفعاً.. ذكريات حياة سابقة.. طفلة تتحدث عن حياة
سابقة لفتاة أخرى.. وغيرها من الكلمات التي قد تساعده في
العثور على مفتاح ذلك اللغز..

كانت المفاجأة غير المتوقعة له أنه وجد بالفعل حكايات
كثيرة مماثلة عن أناس حكوا عن ذكريات حيواتهم السابقة..
كان أغلبهم مات إما في حادث أو بسبب مرضٍ عضال
وعادت أرواحهم لتسكن أجساداً جديدة في حياة أخرى..

"حنان منصور" التي كانت ذات حياة "سوزان غانم"..
"آن فرانك" التي عادت بإسم "باريرو كارلين".. "جيمس
هيوستن" الذي أصبح "جيمس ليننجن".. وغيرهم
كثيرين..

أذهله الأمر خاصة بعدما شاهد فيديوها تروي قصصهم وذكرياتهم وهم أطفال عن تلك الحياة السابقة التي عاشها كل منهم من قبل.. وما أذهله أكثر ذلك الشبه في ملامح كل ممن مروا بهذه التجربة في حياتهم الراهنة وبين من كانواهم في حياتهم السابقة..

كانت طفلة "سارة" هي أيضا تشبه في ملامحها "سارة" موسى سمعان" التي رآها في الصورة التي جمعتها بأنطونيو والتي منحه إياها "جايكوب" ليعيدها إلى صاحبها الأصلية - ابنته الصغيرة - حين تكبر..

لم يكتف بالبحث عن تلك الحكايات وإنما بحث أيضًا عن متخصصين في هذا المجال ليراسلهم ويعرف منهم حقيقة الأمر هل هو محض خيال وأوهام أم أنه واقعٌ تعيشه ابنته كما

عاشه كثيرون غيرها من قبل.. وجد أسماء لكثير من المتخصصين الذي يقومون بعمل جلسات تنويم مغناطيسي تمكن الشخص الذي يخضع لها من استدعاء ذكرياته عن حياته السابقة والتي تكون مخترنة في ذاكرة روحه التي كانت تسكن الجسد صاحب تلك الحياة.. ليس جنوناً إذن ما تعانيه ابنته ولكنها أوجاع روح عانت في حياة سابقة.. روح عادت للحياة من جديد لتبحث عن إجابات لأسئلة ظلت معلقة بين عالمين تنتظر عودتها.. توقفت "سارة" بسيارتها عند استراحة "ماستر" على طريق القاهرة - الإسكندرية لتبتاع فنجاناً من القهوة.. فتحت حافظة نقودها لتدفع ثمن قهوتها فلمحت تلك الصورة مخبئة في ذات المكان الذي أودعتها إياه منذ سنوات طويلة..

عادت إلى سيارتها وملامح "أنطونيو" تراود ذاكرتها
وتلقيها بين براثن حنين يتواري خلف سحب الألم.. وبين
لهفة خفية مغلفة بلا مبالاة مصطنعة.. كادت أن تسكب
القهوة على بنطالها الجينز وهي شاردة مع تلك الأيام التي
جمعتها ولكن صوت رنين هاتفها المحمول أعادها إلى
حاضرها المغرق في الضبابية.. لتضيء شاشة الهاتف بإسم
بواب عمارة الزمالك.. لتتجاهل سارة الاتصال وتستكمل
طريق عودتها إلى مدينة عشقها وأوجاعها..

(٣٦)

حالةً من الهستيريا والقلق العارم أصابت كلاً من "ليليان نصير" و"موسى سمعان".. مضى النهار بطوله ولم تعد ابنتهما إلى المنزل.. وها هو الليل يُسدل ستائر عتمته على الإسكندرية دون أن تظهر "سارة" في الأفق.. خشيت "ليليان" أن تكون ابنتها تعرضت لحادث سير.. أما "سمعان" فكان يخشى ما هو أعظم وأخطر.. أيكون أحدهم قد وشى به وبالدور الذي يلعبه لصالح القوات البريطانية فكانت ابنته هي وسيلة الألمان في الوصول إليه.. فصب جام غضبه على سائقه الخاص الذي انصاع لطلب "سارة" بألا يقلها اليوم إلى المكان الذي ذهبت إليه.. هدده بالتكيل به إن أصاب ابنته أي مكروه.. أرادت "ليليان" أن

تهاتف بعض المعارف والأصدقاء علَّ ابنتها تكون قد ذهبت في زيارة لأحدهم.. إلا أن "موسى سمعان" صاح فيها بغضب ألا تقدم على هذه الخطوة التي ستعرض سمعة العائلة للأقاويل لما يُعرَفُ عنها في أوساط المحيطين بهم بأنها أسرة يهودية محافظة إلى الحد الذي كان يصفها بعضهم أيضا بالتشدد.. في واقع الأمر لم يكن ما يروعه حقًا في ذلك الوقت هو الأقاويل التي سيلوكها الناس عن تغيب ابنته وإنما خوفه من انكشاف أمره وهو لم يستكمل بعد ترتيبات سفره الذي بات حتميًا.. إلا أن "ليليان" ظلت تهذي صارخةً فيه حتى صاح فيها مجددًا لتصمت.. قبل أن يذعن لرغبتها في نهاية المطاف..

- حسنا فلتتصلي بكثير ولكن بعد أن تتماسكي قليلاً.. ربما تكون في زيارة لمنزلها أو ربما تدلنا كثير على مكانها..

حاولت أن تتمالك أعصابها المنفلتة قبل أن تهاتف منزل "إيزاك" لتسأل عن "كلير" أولاً.. أجابها "دانيال".. ليخبرها بأن "كلير" لم تعد بعد من حفل تقيمه مدرسة التانجو للمشاركين في المسابقة.. سألته إن كانت "سارة" بصحبته إلا أنه أخبرها بأنه لا يعرف على وجه اليقين.. ووعداها بالسؤال عنها هناك.. ثم معاودة الاتصال بها لطمأنتها..

كان "جايكوب" قد ذهب لزيارة منزل والده في ذلك الوقت ليحدث أخيه بشأنها حين دار هذا الحديث بين "دانيال" و"ليليان".. مما أثار انتباهه وجعله يحاول التنصت على الحديث قدر إمكانه ليقرر بناءً عليه كيف سيفتح أخاه في الأمر.. بعدما أنهى "دانيال" المكالمة.. استفسر "جايكوب" منه عن سبب المكالمة.. أبلغه "دانيال" بما دار

بينه وبين "ليليان" وهو يهز كتفيه غير مبالٍ.. إلا أن انزعاج "جايكوب" الذي بدا واضحًا على وجهه أثار ارتياب "دانيال" وقلقه..

- ما بك جايكوب وما هذا الاهتمام المبالغ بمكالمة السيدة ليليان وسؤالها عن سارة؟!

حاول "جايكوب" الإفلات من الإجابة وتغيير دفعة الحديث إلى مسار آخر لبضع دقائق حتى تهدأ رياح هواجسه من العصف به.. إلا أن "دانيال" حاصره بأسئلته المتشككة.. لم يجد "جايكوب" مفرًا من إخبار أخيه بكل ما حكته له..

- من الأفضل أن نتحدث في الأمر في غرفتك يا دانيال..

اتجها نحو الغرفة.. ليغلق "جايكوب" الباب جيداً حتى يتسنى لهما الحديث دون أن يسترق أبوهما السمع..

روى له كل ما قصته عليه "سارة" أثناء زيارتها لعيادته.. كان "دانيال" يستمع إلى تلك التفاصيل التي يرويها أخوه وهو يكاد ينفجر غيظاً وقهراً.. جاهد للسيطرة على غضبه حتى ينتهي "جايكوب" من سرد تفاصيل تلك الحكاية التي كان "دانيال" بالطبع يعرف الكثير منها ولكنه لم يكن يتصور أن تتطور العلاقة بين فتاته السابقة وبين هذا الوغد الإيطالي إلى هذا الحد الذي قصه عليه "جايكوب"..

- أعتقد أن سارة في خطر أكبر من ذلك كله يا جايكوب..
خطر حقيقي..

لم يفهم "جاكوب" أي خطر يمكن أن يهدد حياة "سارة"
أكبر مما قد حكاها لأخيه لتوه.. وقبل أن يهتم بسؤاله عما يعنيه..
استطرد "دانيال" قائلاً..

- أعتقد أيضًا أنني أعرف أين يمكن أن نجدها.. ولكن دعني
أذهب بمفردي لإنقاذها فأنا وحدي من يعلم أي خطر
يتربص بها وأنا وحدي من يستطيع مواجهته..

(٣٧)

إن ما بين الحب والحرب ليس أميلاً ولا عقوداً من الزمن
إنما هو حرف هجائي عنوانه الرغبة الكامنة في أعماق البشر
التي تقودهم للحب أو تدفعهم للحرب.. فليست كل
الرغبات سواء وليس كل البشر كذلك.. فالبعض يؤمن
بالحب بالقدر الذي يؤمن آخرون بالحرب.. وما بين حب
وحرب يبقى بشر معلقين بين موت وحياة في انتظار
المجهول..

لا يدري إن كان لا يزال على قيد العقل أم أن الجنون تمكن
منه فما عاد يفرق بين وهمٍ وحقيقة.. أعاد قراءة رسالة "دينا"
مرة أخرى حتى يتحقق من أنه لا يحلم هذه المرة.. كان

مرتبكا إلى الحد الذي جعله يفكر في العودة مرة أخرى إلى عيادة د. "جلال توفيق" ليخبره بأمر الرسالة ولكنه عدل عن ذلك لينطلق بسيارته مسرعاً إلى المهندسين حيث منزل "سليم" و"دينا" ..

كاد أن يصطدم بأكثر من سيارة وهو يحاول أن يتفادى الزحام على كوبري ٦ أكتوبر.. بدأ سائقو السيارات من حوله في الصياح والسباب.. ولكنه لم يبال بأي شيء سوى أن يصل إلى وجهته في أسرع وقت ليسمع من منقذته كل التفاصيل الممكنة.. أيمن أن تكون هي بالفعل امرأته التي بات ليالٍ طويلة يبحث عنها أم أن الأمر التبس على "دينا" ..

وصل إلى العمارة التي يقطن بها "سليم" في أحد الشوارع الجانبية من شارع سوريا.. دقائق قلبه تسابقه في الوصول إلى

الطابق السادس.. لم يطق انتظار المصعد فأسرع يصعد على السلام مهرولاً من فرط الלהفة.. حتى أنه لم يلق بالاً بأنفاسه التي تهدجت من التعب.. ضغط على جرس الشقة بقوة وكأنه يخشى أن يفر طيفها الذي تمسك به "دينا" في الداخل قبل أن يفر هارباً مرة أخرى من واقعه..

- إهدأ يا عمر والتقط أنفاسك الأول وسوف أروي لك كل شيء..

قالتها "دينا" بإشفاق حقيقي عليه..

- احكِ يا دينا.. فلن يهدأ بالي حتى أعرف أين رأيتها ومتى.. أنا على وشك أن أفقد عقلي.. حتى الدكتور جلال توفيق لا يصدقني..

باستغرابٍ واضحٍ بدا على ملامحها..

- أذهبت للدكتور جلال إذن؟ ألم تكن رافضاً لهذا الاقتراح
من قبل..

بنبرة عصبية لم يبدل أي محاولة لإخفائها كعادته..

- أجل يا دينا ذهبت إليه ولتوي عدت من عنده.. وليس
وقته الكلام عن دكتور جلال.. أتيت أعرف منك أين
رأيتها ولم أت لأحكي لك عن زيارتي للدكتور..

استسلمت لعناده هذه المرة دون أن تحاول ممارسة
استفزازها له بمزاحٍ كالمعتاد..

- حاضر يا عمر سأخبرك..

حكّت له عن مكان إقامة "سارة" في شارع شجرة الدر بالزمالك وكيف أنها استطاعت أن تعرف اسمها كاملاً وكيفية حصولها أيضاً على رقم هاتفها بعد أن نقدت بواب العمارة ورقة من فئة الخمسين جنيهاً.. فعرفت منه بعد دردشة قصيرة معه بأن "سارة" مقيمة بالإسكندرية منذ عدة أشهر ولا تأتي إلى منزل أبيها في القاهرة إلا نادراً.. كانت "دينا" قد ادعت للبواب بأنها تبحث عن شقة للإيجار في هذه المنطقة وسألته عن إمكانية استئجار شقة "سارة" فأخبرها أنه لا يعلم إن كانت ستوافق على الأمر أم لا.. وأبلغها أن "سارة" موجودة في شقتها الآن بالفعل ويمكنها محدثتها بنفسها في الموضوع مباشرة.. ولكن دينا تعللت أن لديها موعداً مهماً عليها اللحاق به وطلبت منه رقم هاتفها لتحادثها بشأن استئجار الشقة فيما بعد.. بهذه الحيلة استطاعت الحصول على رقم هاتفها من البواب والذي

كانت "سارة" قد أعطته إياه قبل أن ترحل هي وجدها إلى الإسكندرية تحسباً لأي ظروف يحتاج فيها أن يهاتفها لأي أمر يتعلق بشقة أبيها..

- أليس من الممكن أن تكون واحدة تشبهها يا دينا؟ ماذا يؤكد لك أنها هي؟

- أعرف شكلها جيداً يا عمر من الصورة التي كان سليم يرسمها.. هذا أولاً.. وثانياً أنا صورتها لك بهاتفني المحمول عندما وقفنا بسيارتنا في إشارة المرور حتى تراها بنفسك..

مدت له يدها بهاتفها المحمول لكي يتأكد بنفسه من ملامح هذه الفتاة وهل هي فعلاً صاحبة الطيف الذي يزوره في حلمه أم لا.. ظل "عمر" يحدق في شاشة الهاتف حتى

كادت عيناه تهربان من محجريهما.. إلى أن لكزه "سليم"
ممازحًا..

- هل أتيت لتنام عندنا أم ماذا؟

التفت "عمر" إلى "سليم" وابتسامة ارتياح تغمر وجهه..

- لست مجنوناً يا سليم.. أنا عاقل جداً.. وهي حقيقة جداً..
ولم تكن أبداً وهماً.. أنا أيضاً رأيتها في جلسة التنويم
المغناطيسي التي أخضعني لها د. جلال..

توقف "عمر" عن الكلام فجأة وكأنه تنبه إلى شيء مهم
غفل عنه بغير قصد..

- لابد أن أتصل بالدكتور جلال حالاً.. لن أستطيع الانتظار أسبوعاً كاملاً حتى موعد الجلسة القادمة.. يجب أن أراه الآن أو غداً على الأكثر..

اتصل بطيبه.. وأخبره بما حكته له "دينا".. وأعطى الهاتف لها حتى تؤكد للطبيب بنفسها ما رواه "عمر" له لتوه.. فحدد له "جلال توفيق" موعداً جديداً بعد يومين.. تنهد "عمر" بارتياح لأول مرة منذ أشهرٍ طويلة.. شعر وكأنه عاد من رحلةٍ طويلةٍ مرهقة.. ابتسم ابتسامة رائعة وهو يغمز لهما مداعباً..

- هيا ارتدوا ملابسكم للخروج.. ولديكما الحق في اختيار أي مكان للعشاء لكي نحتفل معاً بمناسبة أني لست مجنوناً..

(٣٨)

يجلس على مقعد صغير مواجهًا للفراش الذي تنام عليه..
يتأمل وجهها بعشق.. فاتنة حتى وهي سباحة في عالم النوم
كطيف أثري.. أن يحب امرأة إلى هذا الحد لم يكن هذا أبدًا في
حسابه.. ولكن حب هذه الفتاة تسلل إلى قلبه دون أن يدري
أو يخطط.. هكذا وبلا مقدمات وجد نفسه واقعًا في الحب..
أنهى علاقته بصوفيا منذ ذلك الحين وأقام سدودًا منيعة حوله
لصد محاولات جميع النساء والفتيات لغزو عالمه.. أمال رأسه
إلى الوراء في محاولة يائسة للاسترخاء.. أغمض عينيه علّ
بعض النوم يستجيب لرجائه.. انساب لحن تلك الأغنية
يداعب ذاكرته.. أعاده إلى تلك الليلة التي جمعتها في هذه
الغرفة لأول مرة..

كانت تقف في الشرفة الصغيرة ونسمات الهواء تداعب
 شعرها البني الملامس لكتفيها.. وهو منهمك في البحث عن
 حافظة نقوده.. تسلسل صوتها إليه وهي تدندن بأغنية قديمة
 للمغنية الأميركية "فرانسييس لانجفورد" ..

*I'm in the mood for love
 Simply because you're near me
 Funny, but when you're near me
 I'm in the mood for love*

أنا في حالة مزاجية للحب

ببساطة لأنك قريب مني

غريب، ولكنك عندما تكون قريباً مني

أكون في حالة مزاجية للحب

- أغنية رائعة على الرغم من مرور سبع سنواتٍ على إذاعتها
 ولكنها بقيت من أجمل أغاني "لانجفورد" ..

اقترب منها وأحاط خصرها بذراعيه.. التفتت إليه..
وأكملت تغني بصوت عذب خجل..

*Heaven is in your eyes
Bright as the stars we're under
Oh! Is it any wonder
I'm in the mood for love?*

الجنة في عينيك
مشرقة كهذي النجوم التي فوقنا
أوه... إنني أتعجب
هل أنا في حالة مزاجية للحب؟

ضمها إليه.. هامساً في أذنها..

-أكمل يا صغيرتي.. لا تخجلي فصوتك يفوق صوتها روعة
وحلاوة..

*Why stop to think of whether
This little dream might fade?
We've put our hearts together
Now we are one, I'm not afraid!*

لماذا توقفت عن التفكير في الطقس

ربما تلاشى هذا الحلم الصغير

لقد التقى قلوبنا معا

والآن أصبحنا واحدا ولست خائفة

مسح على شعرها بيده واستأنف قائلاً..

-أعدك أن تكوني معي دائماً بأمان..

ثم شاركها الغناء لينها الأغنية سوياً قبل أن يغلق الشرفة

ويسدل ستائرهما..

*If there's a cloud above
If it should rain we'll let it
But for tonight, forget it!
I'm in the mood for love*
لو أن هناك سُحْبًا في السماء

لو أنها ستمطر فليكن
ولكن في هذه الليلة
أنا في حالة مزاجية للحب

كانت آخر كلماته لها تلك الليلة قبل أن ينصهرًا معًا في
بوتقة العشق والجنون..

- مسموح الحب.. مسموح جدًا يا فاتنتي..

انتبه على صوت أنينها الخافت.. هرع إليها وأمسك يدها
يقبلها بلهفة.. رفعت رأسها بوهن همت أن تتحدث ولكنه
وضع إصبعه على فمها قائلاً بحنو بالغ..

- لا ترهقي نفسك بالحديث الآن فلدينا من الوقت الكثير
لكي نتحدث في أمور كثيرة يا فتاتي..

ابتسمت ابتسامة شاحبة.. فاستطرد قائلاً..

- حبيبتى.. أنا مضطّر إلى العودة للقاهرة ولكن ليس بوسعي
أيضاً أن أتركك هنا بمفردك بعد الآن.. أيمكنك مرافقتي
هذه المرة؟ أم أن والدتك ستمنع ككل مرة..

- ماتت أمي يا أنطونيو.. فلم يعد لي سواك

قالتها وهي تعض على شفتيها من الألم ودموع ساخنة
تنساب على وجنتيها.. لم تكن أبداً تسمح له في أي مرة أن
يقابل تلك الأم التي حكّت له عنها من قبل أو أن يوصلها
إلى منزلها.. كانت دائماً تتعلل أن طباعها صعبة جداً إلى الحد

الذي لن يجعلها تتقبل مرافقة ابنتها لشاب يكبرها بعشر سنوات.. صدقها آنذاك وحرص على ألا يتسبب لها في أي مشكلات مع تلك الأم المزعومة.. أغمضت عينيها بندم وكأنها تعتذر للليان على الكذب الذي ظلت تمارسه طيلة الأشهر الفائتة.. تمتت في نفسها..

- عذرا يا أمي فلتسامحيني.. وليسامحني أبي فلن أستطيع ترك أنطونيو والسفر معكما إلى المغرب..

أفاقت من حديث نفسها على صوت "أنطونيو" وهو يطلب منها أن تحاول الاستناد على ذراعه ليتمكننا من المغادرة قبل طلوع النهار..

(٣٩)

المحظوظون فقط هم من تمنحهم الحياة إجابات لأسئلتهم
الحائرة أو بعض منها.. يكفي إجابة واحدة على سؤال بعينه
لنحلق عاليًا إلى السماء السابعة بأجنحة اليقين أو ندفن
أحلامنا في مقبرة الخذلان.. في كلتا الحالتين هي الراحة ما
ننشده.. وهو الخلاص من عذابات الحيرة وأنياب الشك..
ترى ما سر هذه الهدأة التي انتابتها فجأة تجاهه؟.. أصبحت
كلما مر ببالها - وكم يمر - تبسم ابتسامة رائعة.. وكأنهما ما
زالا عاشقين.. وكأن الزمن توقف بهما في تلك الغرفة التي
على الرغم من انتقالها للإقامة بالإسكندرية إلا أنها لم تفكر
يوما في الإقامة بها ولو على سبيل الزيارة العابرة خشية أن
تواجه بمفردها أشباح ماضيها بين جدرانها.. شعور ما

ينتابها أنه بات قريباً منها وكأن روحه تطوف حولها.. لم تحاول أن تبحث عما وراء هذا الشعور.. فهي تؤمن أن مشاعر الإنسان ليست بحاجة دائماً إلى تفسير بقدر ما الإنسان نفسه بحاجة إلى أن يؤمن بها ويصدقها وكفى.. جلست في شرفتها تحتسي قهوتها الصباحية وصورتها معاً تحتل ناظرها.. فكرت في أن تكبير الصورة وبروزتها وتعليقها في غرفة المعيشة.. أسعدتها الفكرة.. فعمدت إلى تنفيذها على الفور.. ارتدت ملابسها متجهة إلى ستوديو كوداك بمحطة الرمل.. كان الطقس صحواً والشمس دافئة وكأنها السماء تحتفي بها وبطيفه الذي أصبح يلزمها منذ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى القاهرة بحثاً عنه.. عادت إلى منزلها وعلقت الصورة في غرفة المعيشة كما أرادت.. ثم خرجت ثانية لتتمشى في شارع سعد زغلول برفقة طيفه وذكرياتها معاً.. رن هاتفها المحمول ليعيدها إلى الحاضر الذي تفتقده.. رقمًا غريباً غير

مسجل لديها.. كادت أن ترفض المكالمة ولكنها استقبلتها
تحسباً لأن يكون بواب عمارة شقة أسرتها بالزمالك يتصل بها
من رقم آخر لأمير مهم..

- ألو..

أجابت بلا اكتراث..

- سارة؟

جاءها صوته محملاً بأحلامه التي استوطنت مقلتيه طيلة
الأشهر الفائتة..

بصوتٍ مرتبك وخفقات قلب يحاول استيعاب مفاجأة
غير متوقعة..

-نعم أنا.. من المتحدث؟

كانت تحفظ نبرة صوته عن ظهر اشتياق ولهفة منذ أن سمعته وهو يتحدث في ذلك اللقاء التلفزيوني الذي أعادها لزمنٍ بعيدٍ وأعادها إلى عالمها من جديد.. ولكنها أرادت أن تتأكد من أن أذنيها لا تخدعها كما خدعها قلبها من قبل في ذلك الزمن البعيد..

- أنا عمر سراج.. أرغب في لقاءك في أقرب وقت..

لم تتمالك نفسها من الفرحة والدهشة.. كادت أن تصيح كطفلةٍ وجدت نفسها فجأة في مدينة الملاهي لأول مرة.. كادت أن تبكي كعاشقةٍ جرفها مد الحنين إلى شطآنه الدافئة لينقذها من غرق محتم..

- سارة.. هل تسمعيني؟؟

انتشلها صوته من دهشتها..

- نعم.. ولكن من أين عرفت رقم هاتفي. أعني كيف عرفت عني.. ومنذ متى وأنت تعرف؟

صمتَ لبرهة.. أصابته الدهشة من إجابتها.. إذن تعرفه هي أيضًا.. ولكنه سرعان ما استدرك قائلاً بلهفة اخترقت حاجز الصمت وحاجز السنين الطوال التي فرقتهما..

- سأخبرك كل شيء عندما نتقابل.. أرغب في مقابلتك بشدة.. لأنه من الواضح إنك أنتِ أيضًا لديك الكثير لتخبريني به..

طلب منها أن يلتقيا في اليوم التالي إلا أنها استمهلهت بضعة أيام قليلة فقط لتعد نفسها لهذا اللقاء المنتظر.. تذكر فجأة موعده مع طبيبه النفسي والذي كان قد نسيه من فرط سعادته فوافقها مرحباً.. على أن يكون هذا اللقاء في الإسكندرية.. أنها المكاملة وكل منهما يكاد يلمس السحاب.. هرعت فرحة إلى أتيليه "نانسي" لتخبرها بما حدث.. وتطلب منها أن تحيك لها فستاناً مماثلاً لذلك الفستان الذي كانت ترتديه ذات حياة في تلك الصورة القديمة التي جمعتها بأنطونيو.. أمضت بقية اليوم معها تعيد عليها مرة بعد أخرى تفاصيل هذه المكاملة التي أعادت إليها الحياة من جديد.. دعتها "نانسي" للغذاء احتفالاً بهذه المفاجأة الرائعة وغير المتوقعة.. لتشاركها فرحة ودهشة المفاجأة.. أما عمر فاستعد لموعده مع د. "جلال توفيق" ورغبة قوية تتأجج في داخله لمعرفة المزيد عن علاقته بسارة في الماضي قبل أن يلقاها في الإسكندرية..

أخبره د. "جلال" قبل البدء في جلسة العلاج بأن المريض حين يتم تنويمه مغناطيسيًا فإنه يستعيد ذكريات لها وجود بالفعل في ماضيه مخزنة في عقله اللاواعي.. أي أن ما ذكره في الجلسة العلاجية الأولى يعني أنه قد عاشه سابقًا بالفعل.. ولكن بقيت هناك أسئلة ما زالت تبحث عن إجابات تشفي حيرته وحيرة د. "جلال توفيق" كذلك.. أين ومتى وكيف؟!..

"أجلس مكبل القدمين في غرفة صغيرة مظلمة.. أسمع صوت أقدامهم الغليظة وهي تمر من أمام باب الغرفة ذهابًا وإيابًا في خطوات منتظمة رتيبة.. يكاد هذا الصوت الوحيد الذي يشق سكون الليل أن يفتك برأسي كوحش جائع.. يعاودني صوت صراخها قبل أن تصمت إلى الأبد.. يلوح أمام عيني وجهها الشاحب والحياة تغادره آخذة معها كل

لحظات الفرح في أيامي المتبقية بعدها.. أدفن وجهي بين يدي
 وأنكفئ مجهشًا بالبكاء.. ينفتح باب الغرفة محدثًا صريرًا
 مزعجًا.. لا أخاف الموت بل أرغبه حتى ألحق بها.. يأمرني
 الجندي أن أنفض وأمضي معه إلى غرفة التحقيق.. يجلس
 الكولونيل المكلف بالتحقيق معي خلف طاولة خشبية
 صغيرة مسلطًا عليها ضوء المصباح الوحيد المتدلى من سقف
 الغرفة.. يأمرني بالجلوس على المقعد المواجه لمقعده.. أجلس
 دون أن أنطق.. يعيد على مسامعي ذات الأسئلة التي
 أمطروني بها سابقًا كوابل رصاص لا يحیی ولا يمیت.. أنكر
 معرفتي بالأمر كما أنكرته سابقًا.. لم أكن أعرف بأن فتاتي
 يهودية.. كل ما أعرفه عنها أنها فتاة يونانية تدعى سارة
 قسطنطين تعيش مع أمها التي تعمل بالحياكة بعد أن هجرهما
 الأب منذ فترة طويلة.. لا أعرف شيئًا مطلقًا عن عائلة
 موسى سمعان.. أو عن علاقتها بذلك الشخص الذي

يدعى دانيال سولومون.. لم يعد لدي ما أقوله في هذا الشأن..
يدخل جندي إلى غرفة التحقيق مسرعاً.. يسرّ بخبر ما في أذن
الكولونيل.. ينهض الكولونيل من مقعده وعلامات الخيبة
ترسم جليّة على وجهه.. ينظر إلي والغضب يُطلّ من عينيه
كشمس الصحراء الحارقة.. يصيح بوجهي.. أسروا من
جنودنا الآلاف.. خسرنا معركة العلمين.. الويل لكل
خائن.. لا أبالي بكل ما يقوله.. أريد أن أغمض عيني للمرة
الأخيرة لأذهب حيث ذهبت هي.. أظل صامتاً كصنم
حجري.. يسحب مسدسه من حزامه.. يهم بإطلاق
الرصاص على رأسي.. أغمض عيني لعلي أرحل إليها..
يدخل أحد الجنرالات إلى الغرفة وهو يصيح بالجميع.. علينا
أن نتحرك سريعاً.. يعطي أوامره للكولونيل بأن يطلق
سراحي لتأكدهم من عدم معرفتي بحقيقة أمر فتاتي.."

كان عمر " يجلس مذهولاً أمام د. "جلال توفيق" وهو
يسمع تلك التفاصيل التي حكاها منذ قليل وهو منوم
مغناطيسيًا..

- لا أفهم يا دكتور.. ما معنى هذا؟ كيف أكون عمر
وأنطونيو في نفس الوقت..

- مبدئياً أنت لست عمر وأنطونيو في نفس الوقت.. أنت
حالياً عمر.. أنطونيو شخص آخر ولكنك كنت هو في
زمن سابق عشته بنفس الروح التي تعيش بها الآن..

نظر "عمر" إلى الطبيب وعلامات استفهام أكبر تطل من
عينيه.. وابتسامة بلهاء بلا معنى ترسم على وجهه..

- هل تظن أنني فهمت؟؟

- هل تسمع عن تناسخ الأرواح يا عمر؟

ازدادت دهشة "عمر" الذي رفع حاجبيه وهو يبادر
الطبيب بإجابة حائرة ما بين الشك واليقين..

- لا أدري.. ولا أفهم.. اشرح لي بالتفصيل ماذا تريد أن
تقول لي.. أنا من منهما.. حقاً لم أعد أفهم..

- أنا نفسي يا عمر لم أكن أصدق في تناسخ الأرواح ولكن
بعدما رأيت حالتك بنفسي بدأت أصدق أنه أمر وارد
الحدوث وسأبدأ في إجراء أبحاث عليه من الآن..
باختصار تناسخ الأرواح معناه أن روحك تعيش أكثر من
حياة ولكن في داخل نفوس لأشخاص مختلفين.. وحين
يموت الشخص الذي يحمل هذه الروح بداخله تعود
لتسكن في جسد شخص آخر وتعيش حياة جديدة.. يعني

أنت عشت في الحياة السابقة بإسم أنطونيو جيانو ثم
أصبحت عمر سراج في هذه الحياة.. نفس الروح ولكن
شخصيتين مختلفتين وحياتين مختلفتين..

(٤٠)

قضى "دانيال" ليلته باحثاً عن "أنطونيو جيانو" .. ذهب أولاً إلى حيث يقيم بحي الإبراهيمية ولكن بواب العمارة التي يقطن بها أبلغه بأنه لم يعد بعد .. توجه من فوره إلى محطة الرمل ظل يطوف بالشوارع المحيطة بفندق "متروبول" .. لمح سيارته على بعد أمتارٍ قليلة من باب الفندق .. فكر لثوانٍ في أن يدخل الفندق ويسأل موظف الاستقبال عنه ولكنه أحجم عن تلك الفكرة الحمقاء .. فلو أن هذا الإيطالي اكتشف أمره .. لفقد كل أثر يمكن أن يقتفيه ليصل إلى "سارة" ..

لمحه يخرج من باب الفندق وحده.. ظن أنه ذاهب لمقابلة "سارة" في مكان ما.. فتتبعه من مسافة بعيدة.. سار "أنطونيو" بضعة أمتار في شارع سعد زغلول.. ثم دلف إلى صيدلية ما وابتاع دواء منها.. لم يستطع "دانيال" أن يحدد ماذا يبتاعه من تلك الصيدلية لبعد المسافة بينهما.. ولكنه تصور أن يكون مسكناً للصداق أو ما شابه.. غادر "أنطونيو" الصيدلية ثم توجه عائداً للفندق..

ظل "دانيال" بعدها يرقب مدخل الفندق وهو جالس في سيارته في الشارع المقابل له على مسافة ليست ببعيدة.. كاد أن يغفو عدة مرات ولكنه كان يصارع من أجل البقاء مستيقظاً قدر استطاعته.. ولكن بدأ النعاس يتسلل إلى جفونه كحصي عتيق في سرقة اليقظة من عيون الساهرين.. في الوقت الذي كان "أنطونيو" يخرج مرة ثانية وحده من باب

الفندق متجهًا إلى سيارته.. ليقودها إلى الرصيف المواجه
للبوابة مباشرةً ثم يهبط منها متوجهًا إلى الداخل مرة أخرى
لتخرج "سارة" معه هذه المرة مستندة على كتفه..

فتح لها "أنطونيو" باب السيارة من الجهة المجاورة لمقعده
وعاود إغلاقه بهدوء.. ثم اتجه ناحية مقعده خلف المقود
وركب بجوارها ليدير محرك السيارة من فوره وينطلق بها
سريعًا..

انتفض "دانيال" من غفوته على صوت أزيز موتور سيارة
"أنطونيو" الذي أقض مضجع السكون.. لمح "سارة"
تتوسد في إعياء زجاج نافذة السيارة والتي مرت لتوها
بجواره.. فانطلق هو الآخر بسيارته خلفهما ليتبعهما..

كان "أنطونيو" يتجه ناحية طريق العلمين مما أثار ريبة
"دانيال" أكثر.. زاد من سرعته ليلحق بهما وقلبه هو الآخر
يزيد من سرعة ضرباته.. ضرب المقود بكلتا يديه وهو يصيح
في غضب..

- لن أدعك تسرقها مني مرة أخرى يا أنطونيو.. لن أسمح
لك بإيذائها..

كانت "سارة" لا تزال محدقة في فراغ الطريق تحاول أن
تتناسى ما خلفته وراءها من حطام عائلة.. لم يعد هناك أي
سبيل للعودة أو التراجع.. قُضي الأمر الذي كان عقلها
وقلبهما فيه يستفتيان..

لم يكن حال "أنطونيو" بأفضل من حالها ففي ذهنه
احتشدت آلاف الهواجس تنهش في أعصابه وهو يراقب في

قلق من المرأة المعلقة بسقف سيارته.. تلك السيارة التي تتبعه منذ أن غادر حدود الإسكندرية.. كان الطريق خاليًا ولم يكن من الصعب أن يتفطن إلى أن هناك شخصًا ما يحاول اللحاق به..

التفتت "سارة" إليه حيث بدا منزعجًا وشاردًا.. قالت بصوت أنهكه اختلاق الأكاذيب للاحتفاظ بحب رجل أحرقت من أجله أيامها وهدمت في سبيل الوصول إليه جميع الجسور..

- أنطونيو.. أود إخبارك بأمرٍ في غاية الأهمية كنتُ أخفيه عنك..

ربت على يديها وهو يجيبها بشرود من يزال يفكر في أمر هذا الذي يتبعه على الطريق..

- لا عليك يا حبيبتى.. إنني أعلم كل شيء.. لا داعي
للحديث الآن يا صغيرتي الفاتنة.. فأنت لا تزالين متعبة..

اتسعت حدقتها من الدهشة وهمت أن تسأله عن ما هو
هذا الـ "كل شيء" الذي يعلمه.. في الوقت الذي انحرف
هو بالسيارة إلى جانب الطريق ليتوغل بضعة أمتار قليلة في
الرمال قبل أن يوقفها فجأة ويطفئ أنوارها ثم يعيد تشغيلها
مرة أخرى لمرتين متتاليتين.. مما جعلها تؤجل سؤالها عما يعنيه
بأنه قد عرف كل شيء لتسأله عن سبب توقفها في الصحراء
في هذه العتمة الموحشة..

- بعض الأوراق المهمة يجب أن أسلمها إلى أحدهم قبل أن
نغادر..

لم يكد يكمل حديثه إليها حتى لمحت أنوار كشافات
سيارتين آتيتين من قلب الصحراء باتجاههما.. توقفت
إحدهما على مسافة مائة متر وأطفأت أنوارها بينما الأخرى
الذي تبين لها أنها مكشوفة ويستقلها أربعة جنود فتوقفت
على مسافة أقرب إلى سيارة "أنطونيو" من تلك التي
ترافقها..

هبط "أنطونيو" من السيارة وتوجه لحقيبتها الخلفية فتحها
ليخرج منها صندوقاً خشبياً كتلك الصناديق التي تعبأ بها
زجاجات الخمور ليحمله ويسير به نحو قائد السيارة المطفأة
الأنوار..

كان "دانيال" في تلك اللحظة قد وصل إلى المكان الذي أوقف "أنطونيو" به سيارته.. فتسلل بهدوء من سيارته حتى اقترب منها..

لمحته "سارة" من المرآة الجانبية.. أطلقت صيحة خافتة اضطرت به إلى الركض نحوها ليخبرها بحقيقة أمر "أنطونيو".. ولكن أحد الجنود الأربعة عاجله بطلقة نارية في ساقه جعلته يسقط على ركبته وهو يصرخ من الألم ويصيح في "سارة" محذراً إياها أن تهرب من العميل الألماني الذي جاء بها إلى هنا ليسلمها إلى القوات النازية.. لتنطلق نحو رصاصة أخرى وتستقر في صدره ليسقط صريعاً ويلفظ أنفاسه الأخيرة على الفور..

ساد الهرج المكان في حين كانت "سارة" قد ترجلت من السيارة وهي تصرخ وتنادي على "دانيال" .. تذكرت ما قاله لها "أنطونيو" من أنه يعلم كل شيء .. ظلت تصرخ فزعة بجوار جثة "دانيال" الذي كان يحثها على الهرب قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

في الوقت نفسه كان "أنطونيو" يهرع عائداً نحوها ليستطلع الأمر .. ولكن رصاصة الجندي الألماني كانت أسرع إليها منه فاخترقت أعلى بطنها لتسقط مزرجة بدمائها بجوار جثة "دانيال" ..

كان "أنطونيو" قد وصل إليها وهو يصرخ طالباً منهم أن يسعفوها قبل أن تموت .. ويرجوها ألا ترحل .. قالت له بصوت واهن قبل أن تسلم الروح ..

- Je suis enceinte .. أنا حامل ..

أغمضت عينيها للمرة الأخيرة وهو يحتضنها ودموع عينيها
تردد في صمت ..

- نعم أعلم يا سارة بأمر الجنين .. لقد أخبرتك بأني أعرف
كل شيء يا حبيبتى ..

رحلت عنه وهي تظن أنه اكتشف حقيقة أمرها وأنه أتى
بها إلى هذا المكان ليسلمها إلى الألمان كما أخبرها دانيال " قبل
موته .. وغاب هو عن وعيه قبل أن يخبره الجنود المحيطين بهما
بما دار بينهما وبين "دانيال" من حديث ..

ظلوا يحققون معه بعدما أفاق حتى تأكدوا بأنه لم يكن
يدري بالفعل بأنها فتاة يهودية.. أخلوا سبيله بعد أن حُسمت
المعركة لصالح بريطانيا.. ولكن ذكراها لم تخل سبيل أيامه..

تجرع مرارة هزيمته في حب فتاة لم يعد يدري هل بادلته حبًا
أم أشبعته خداعًا.. كما تجرع "هتلر" قسوة هزيمة قواته في
معركة العلمين التي كانت حدًا فاصلاً في تغيير مسار الحرب
العالمية الثانية التي أشعلها انتقامًا من أولئك اليهود الذين
تآمروا على بلاده..

(٤١)

"في الحب لا توجد بدايات ولا نهايات.. إنما فقط أرواح عاشقة.. منذ بدء خليقتها في ذلك العالم البعيد.. عالمها الأثيري.. حيث تلتقي الأرواح لأول مرة فيتآلف بعضها ويتنافر الآخر.. ويبقى السر المعلق في أستار الوجود هو ما يربط بين روحين دون سواهما.. سر أطلقوا عليه في عالمنا اسم الحب.. جميعنا يبحث عن الروح التي تكمله.. تلك الروح التي ألفها منذ ذلك الزمان السحيق.. منا من يحالفه الحظ فيلتقي بها في حياة ما ومنا من يمضي حياته بحثاً بدون طائل.. والأرواح العاشقة وحدها هي التي تهتدي السبيل.. الحب هو هذه الطاقة الكامنة في الوجود هو دليلها في رحلتها في كل حياة.."

خطت تلك السطور في دفترها الأزرق.. وهي تضع صورتها معًا بين صفحاته قبل أن تغلقه للمرة الأخيرة وترقده بسلام في حقيبة صغيرة تحتفظ بأوراقها المهمة بها.. لم يمض يومٌ قبل لقائهما الذي اتفقا عليه دون أن يتحدثا هاتفياً.. صباحًا ومساءً.. ليلاً ونهارًا.. وكأنهما يرغبان في تعويض ما فاتهما من سنوات فراق طويلة.. قص عليها تفاصيل رحلته الطويلة في هذه الحياة.. وكيف فرض عليه عمله بالخارجية التنقل من بلد لآخر.. حتى استقال منه وتفرغ للكتابة.. حكى لها عن كل هؤلاء النساء اللواتي صادفهن في طريقه إليها.. كيف كان شعور النقصان دائمًا ما يؤرقه في كل العلاقات التي عبرت حياته.. وكأنه كان يبحث عنها في جميع النساء.. لم يتزوج.. ربما لأنه لم يجد من بينهن من تعوض ذلك الشعور بالفقد الذي كان يداهمه في أكثر اللحظات حميمة بأي منهن.. عبرت الكثيرات منهن على

أيامه وعلى فراشه ولكن لم تستوطن أي منهن قلبه أو تمر
عابرة على بابه..

- كنت دائما أشعر أن هناك شيئا ما ينقصني.. كنت أبحث
عن شيء لا أجده.. شعور لم يملكني إلا عندما بدأت
أراك في أحلامي منذ عدة أشهر..

أخبرها أيضا عن جلسات التنويم المغناطيسي التي أخضعه
لها د. "جلال توفيق" وكيف عاد بذاكرته لتلك الأيام التي
جمعتها بها حين كان "أنطونيو".. وعن تلك الليلة التي قضها
في فندق "متروبول" وعن بداية زيارتها له في أحلامه..
حكّت له عن طفولتها.. عن تلك الذكريات التي داهمتها في
سن الخامسة عن تشتتها بين حياتين.. عن أيامها التي قضتها
في البحث عن هوية تنتشلها من حيرتها.. عن سنين عمرها

التي قضتها تحاول أن تعيشها كأى فتاة أخرى تماثلها في العمر.. قصت عليه حكايات هؤلاء الذين تقدموا لخطبتها ولم تستطع أن تقنع بأحدهم شريكاً لها في الحياة.. حيث ظل قلبها معلقاً بخيوطٍ واهية لحكايةٍ قديمة واراها الزمن ثرى ذاكرته ولكنها ظلت عالقةً بجدران ذاكرة روحها.. كرسى وقتها كله في الدراسة حتى حصلت على ماجستير في إدارة الأعمال لتساعد والدها في إدارة شركاته عوضاً عن الولد الذي لم ينجبه.. تعمقت في قراءة العلوم الفلسفية والإنسانية علّها تجد في أي منها إجابة على سؤالها الحائر.. من تكون؟.. انهمكت في العمل وفي الحياة لتتناسى ماضيها.. حتى ذلك اليوم الذي قاده القدر إليها وشاهدته في لقاءه التلفزيوني وهو يتحدث عن باكورة رواياته بعد اعتزاله العمل السياسي.. كانت المرة الأولى التي تراه فيها ليستيقظ مارد

الذكريات بداخلها من جديد ويقلب حياتها ثانية رأسًا على عقب..

- أما أنا فقد شاهدتك في التلفزيون قبل أن تذهب إلى الإسكندرية بأسبوع وتبدأ في الحلم بي.. كنت أفكر فيك كثيرًا جدًا في ذلك الوقت.. ربما طاقة المكان وطاقة أفكاره هي التي جعلتك تبدأ برؤيتي في أحلامك.. الطاقة الكونية وطاقة أرواحنا يا عمر هي التي جعلتنا نلتقي مرة أخرى..

حكيا.. وحكيا.. وحكيا.. وكأن الحكايات بينهما كالحب ليس لها بدايات أو نهايات.. ممتدة كامتداد الزمن.. هادرة كموج البحر.. ندية كنسمات فجر.. خرافية كأساطير قديمة.. جديدة كشمس صباح مشرق.. ظل وحده ذلك السؤال الحائر الذي يحمله كل منهما مؤجلًا لحين اللقاء..

أمضيا ليلتهما في انتظار الغد ليلتهما.. اتفقا على أن يكون لقاءهما أمام فندق "متروبول" في الساعة السابعة مساءً.. قضيا نهارهما يستعدان للموعد المرتقب.. كانت "سارة" قد أرسلت له على *whatsapp* تلك الصورة التي جمعت ما بينهما في تلك الحياة الماضية.. لاحظ ذلك الشبه الكبير بين "أنطونيو" وبينه.. أعادته الصورة لتلك الليلة التي رأى فيها وجه "أنطونيو" يطل عليه من مرآة حمام الغرفة ٣٠٩ بفندق "متروبول".. ذهبت مبكرًا في ذلك اليوم إلى أتيليه "نانسي" لتحضر الفستان الذي أوصتها بحياته خصيصًا لهذه المناسبة التي طال انتظارها لها.. وما إن رأتها الأخيرة حتى شهقت بتعجب..

- يا مجنونة ماذا فعلت في شعرك؟؟

- عادي يا نانسي قصصته وغيرت لونه..

أجابتها "نانسي" ضاحكة..

- أصبحت الآن سارة موسى سمعان..

شاركتها "سارة" الضحك بينما "نانسي" تنادي على إحدى
العاملات بالأتيليه لتحضر الفستان الذي ما إن رآته الأولى
حتى قفزت تجذبه بفرح من يد العاملة.. ثم التفتت إلى
صديقتها لتعانقها وتقبلها شاكرة.. عادت إلى منزلها وأحلام
اللقاء تسبقها.. ارتدت الفستان النبيذي اللون وظلت تدور
به على أنغام تلك الأغنية العتيقة التي استطاعت الحصول
عليها من الإنترنت بصوت مغنيتها الأصلية "فرانسيس
لانجفورد" *I'm in the mood of love* .. (أنا في حالة مزاجية
للحب) ..

منذ أن رأى "عمر" تلك الصورة حتى أسر في نفسه أمراً ليفاجئها به.. وفي صباح يوم اللقاء الموعود استقل سيارته بصحبة صديقه الوفي "نوار".. اتجه أولاً لمنزل "دينا" و"سليم" ليتركه لديهما حين عودته من الإسكندرية.. وانطلق إليها ترافقه الלהفة ويحتضنه الحنين.. وصل إلى الإسكندرية قبل موعدهما بساعتين.. ظل يطوف شوارعها بسيارته وكأنه يراها للمرة الأولى.. سيدة المدن هي كما حبيبته سيدة النساء.. كان يقف بقامته الفارعة أمام باب الفندق ينتظرها غير عابىء بنظرات التعجب التي يرقبها بها المارة من هيئته التي جعلته يبدو وكأنه أحد نجوم سينما الأبيض والأسود.. لمحها وهي آتية.. تأهب لاستقبالها بباقة كبيرة من الورد الحمراء التي انتقاها بعناية من أجلها.. وما إن اقتربت منه حتى أجمته الدهشة.. إنها هي نفسها "سارة موسى سمعان" التي اصطحبها "أنطونيو" إلى مطعم "سانتا

لوتشيا" ذات مساء عاشق.. عيناها.. شعرها البني الذي يصل إلى كتفها.. فستانها النيبيذ الأنيق.. حذاءها الأسود العالي اللامع.. خطواتها المتهادية على دقات قلبه.. ابتسامتها الواهية.. أغمض عينيه وأعاد فتحمها ثانية ليتأكد من أن من يراها أمامه ليست طيفاً من ذكرياتٍ مضت.. اتسعت ابتسامتها له وهي تحرق فيما يرتديه بفرحة طفلة أهداها "بابا نويل" أجمل هدايا أعياد الميلاد على الإطلاق.. كان "أنطونيو جيانو" من يقف بانتظارها أمام باب الفندق كذلك اليوم البعيد جداً الذي كان ينتظرها أمامه في حياة خلت.. استعادت حاضرها من جديد وهي تعتذر له بنبرة خجولة..

- آسفة تأخرت عليك قليلاً..

منحها باقة الورد بيده اليسرى وابتسامة امتنان للقدر الذي
جمعها مجدداً تطل من عينيه.. وصافحها بيده اليمنى وهو
يرفع كفها إلى شفتيه ليطبع عليه قبلته الوداعة..

- تأخرتي سنيماً طويلة.. وانتظرتك سنيماً أطول.. المهم أنك
قد آتيت في النهاية.. والمهم أني وجدتك أخيراً..

توردت وجنتاها.. ظل يتأملها يبحث في ملامحها عن
تاريخه.. يفتش في عينيها عن روحه التي تركها معلقة بين
جفونها ذات غفوة لزمانٍ جمع بينهما ذات حياة.. سارا معاً في
اتجاه تمثال سعد زغلول بميدان محطة الرمل.. عبرا الطريق
سويّاً ليصلا إلى الجانب الآخر حيث البحر يقبع شاهداً على
الزمان وعلى حكايتهما العتيقة.. أدارا ظهرهما للبحر ليلقيا
نظرةً خاطفةً على فندق "متروبول" في الجهة المقابلة.. وعلى

غرفة ذكرياتها التي تطل عليهما من طابقه الثالث قبل أن يكملا سيرهما على الكورنيش.. تسللت يده لتحتضن يدها في شوق.. تركت يدها تنام في يده.. أجابها دون سؤالٍ منها..

- أنطونيو لم يبلغ الألمان عن سارة.. لأنه لم يكن يعرف أصلاً أنها يهودية.. هو كان يحبها ذلك الحب الذي لم يحبه قط لامرأة من قبل..

سرت رعدة خفيفة في أوصالها ضغطت بيدها الرقيقة على يده تتلمس منه الأمان والدفع.. التفت إليه وعيناها تطوفان بوجهه.. وابتسامة عذبة تزين وجهها..

- وسارة لم تخدع أنطونيو لكي تتجسس عليه.. هي اضطرت فقط لأن تكذب عليه لأنها كانت تحبه ذلك الحب

الذي لم تتصور أن تحبه لرجل في حياتها كلها.. وكانت تظن
أنه سيهجرها لو عرف أنها يهودية..

أفلت يدها من يديه ليضمها إليه.. وضعت رأسها على
كتفه.. همس لها بذات النبوة الدافئة التي طالما أثملت
روحها..

- ما زلت أحبك يا سارة.. روحي التي أحبتك من قبل أن
نخلق لا تزال تحبك وستبقى تحبك في كل حياة سوف
نعيشها..

ازدادت التصاقاً به لتختبئ داخل صدره..

- وأنا روحي لم تنسك ولا لحظة ولم تتمكن أبداً أن تكون
لغيرك في أي حياة عاشتها..

ولحياة الروح بقية..

ريم أبو عيد

كاتبة وروائية وسيناريسست مصرية

مؤلفات:

- ذات حلم (ديوان نثر)
- امرأة فوق العادة (ديوان شعر)
- على اسم مصر (كتاب وثائقي مصور)
- حالة هذيان (ديوان)
- على هامش العاصفة (رواية)
- كونشيرتو الحب والمطر (ديوان نثر)
- بروتوكول سيفر (مجموعة مقالات)
- عاهات فيسبوكية (كتاب ساخر)
- سان ستيفانو (رواية)

سيناريوهات أفلام:

- متروبول (سيناريو وحوار فيلم سينمائي)
- في بيتنا كلب (سيناريو وحوار فيلم سينمائي)
- ليو (سيناريو فيلم قصير صامت)

للتواصل مع الكاتبة

E-mail: aboueid.reem@hotmail.com

Official Facebook Page: [writerreemaboueid](#)